

إمام الصابرين

أحمد بن حنبل

عبد العزيز المسند



٣٣

المكتبة الصغيرة

٢٢

أحلام الصابرين

أحمد بن حنبل

عبد العزيز المسند

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

ربيع الأول ١٤٠٢هـ

يناير ١٩٨٢م

الغلاف والعناوين من اعداد

الفنان السعودي

حمد كليب الحارثي

كلمات عن الامام

« ما أعلم أحداً يحفظ على هذه الأمة أمر دينها الا شاباً
بالمشرق هو أحمد بن حنبل .. »

أبو مسهر

« أحمد بن حنبل هو الامام البارع المجمع على جلالته وامامته
وورعه وزهادته وحفظه ووفور علمه .. »

الامام النووي

« قيل لبشر الخافي .. لو قمت فتكلمت كما تكلم أحمد فقال :
« لا اقوى عليه . ان أحمد قد قام في ذلك مقام الأنبياء . »

الامام الشافعي

« ان الله عز وجل - أيد هذا الدين بأبي بكر الصديق يوم
الردة ... وبعمر بن عبد العزيز يوم رد المظالم ... وبأحمد بن
حنبل يوم المحنة .. »

علي بن المديني

خير البرية بعد صعب محمد
والتابعين ، امام كل موحد
ذو العلم والرأي الاصيل ومن حوى
شرقا علا فوق السما والفرقد
أبو الخطاب الكلوذاني

أضحي ابن حنبل محنة مأمونة
ويحب أحمد يعرف المتنسك
واذا رأيت لأحمد متنقضا
فاعلم بأن ستوره ستتهتك
ابن اعين



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

تربطني بالأستاذ الأديب (عبد العزيز الرفاعي) روابط قوية ، كلها في العلم والثقافة . كان أولها عندما كنت طالبا في (كلية الشريعة والدراسات الإسلامية) - بمكة المكرمة - . وكانت (البلاد السعودية) اذ ذاك تصدر في مكة - فعملت في صيف أحد الأعوام مصححا في الجريدة - وكان الأستاذ عبد العزيز أحد المشرفين المسئولين عن (البلاد) الجريدة ، وأحد كتابها ومحرريها . عرفته هناك حيث البساطة واليسر في مكان ضيق في أول (الشامية) حول مطبعة بدائية تصدر عنها - الجريدة - التي يرأسها الأستاذ (عبد الله عريف) ويقوم بسكرتارياتها الأستاذ (عبد العزيز ساب) .

ثم انطوى الزمن سريعا ، وجمعتنا أيضا الصلة العلمية حيث عملت أنا والأستاذ عبد العزيز الرفاعي في (اللجنة الفرعية لسياسة التعليم) سنوات كانت كلها علما وأدبا وروحا طيبة صافية ..

ومرت فترة من الزمن والتقينا معا للثقافة والأدب حينما أعلنت (مؤسسة الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر) عن مسابقة

ثقافية دعى لتحضيرها نخبة من العلماء والادباء . ففي اول اجتماع للجنة اهدانى الأستاذ عبد العزيز أحد كتب (المكتبة الصغيرة) وهو (الامام الشافعي - الفقيه الأديب) للأستاذ الأديب (أحمد العربى) . وما ان تصفحت بعض صفحاته حتى نبذ الي الأستاذ عبد العزيز ورقة يقترح عليّ فيها أن أكتب عن الامام أحمد ، فرددتها على الفور موقعا أسفلها بالموافقة والترحيب ..

وعلى بركة الله بدأت :

فكان أول عمل بدأت به قراءة كتاب السيد أحمد العربى عن الامام الشافعي ثم جمعت ما وجد فى مكتبتي من كتب تتحدث عن الامام أحمد واستعرت ما تيسر من بعض المكتبات وبدأت أقرأ ... والحق اننى استفدت واطلعت على أشياء كثيرة لم أكن أعرفها من قبل - وهذه من فوائد البحث والتأليف ...

ومن يتحدث عن الامام أحمد لا يحتاج الى تعريف أو تعليل أو بيان الاسباب ولكنى أثبت فى مقدمة الحديث عنه ما يلي :

أولا : ان تجديد حياة امام مثل الامام أحمد يحيى القلوب ، ويقوى العزائم ، ويربطها بربها ويثبت ايمانها ، ويدعو الى الاستقامة والاستزادة من العلم وبذل النفس فى سبيله .

ثانيا : ولذلك تحدثت عن الامام أحمد .. وليس حديثى عنه لأنى حنبلى ! أو لأنى سعودى والسعودية تنتهج مذهب أحمد ...!

ثالثا : أن الجيل الحاضر اذا قرأ صبر الامام وجهاده وسعيه أربعة أشهر ليحصل على (سند) يرويه عن شيخه ... أدرك

البون الشاسع بين حياة الأجيال الأولى وحياتنا اليوم . فكل
الوسائل لدينا مبذولة ، وكل العلوم والمواد مفهرسة وميسرة .
ومع ذلك يقل العلماء .. وفي زمن أولئك كل شيء صعب وغير
متيسر . ورغم ذلك برزوا وخدموا العلم ، وملأوا الدنيا حقائق
ومبادئ . فلعلنا نتعظ ونعتبر ، ونسير على نهجهم !..

رابعا : نظراً لارتباطى بصفحات محدودة فقد اكتفيت بما
يغنى القارئ عن الإطالة ، ويكفيه عن الاستزادة من حياة الامام.
والله حسبنا وهو نعم الوكيل ٤

عبد العزيز المسند



شخصيته ومؤلفاته

معلومات شخصية عن الامام :

اسمه : أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني .
ولادته : ولد الامام فى شهر ربيع الأول عام
١٦٤ هـ .

نسبه : يرجع نسب الامام الى بكر بن وائل .
وكذلك نسب أمه فهو عربي الأصلين من البصرة
وجده لأمه عبد الملك بن سواده من زعماء
بنى شيبان .

الا أن جده انتقل الى خراسان حيث ولي اماره
(سرخس) فى عهد بنى أمية وفى العصر العباسى
عاد جده الى بغداد عام ١٧٩ وكان من أهداف
عودته إتاحة الفرصة لهذا الغلام لطلب العلم ..

شهرته : اشتهر الامام بأحمد بن حنبل بسبب
وفاة والده وهو صغير وحضانة جده (حنبل) له ..

طلبه العلم : بدت النجاة والذكاء على أحمد منذ صغره فعلمه أهله مبادئ القراءة والكتابة ، حتى حفظ القرآن ورغب في زيادة العلم فرحلوا لبغداد حيث العلم والعلماء ، وكان يقول : « فاتني مالك بن أنس فأخلف الله علي هشيم بن بشر السلمي ، وفاتني عبد الله بن المبارك فأخلف الله عليّ سفيان بن عيينة ، وفاتني حماد بن زيد فأخلف الله عليّ اسماعيل بن علية » . فكان يرجو حينما قدم بغداد أن يدرك العالم الشهير عبد الله بن المبارك الا انه توفي حين قدوم الامام فتتلمذ أولا على هشيم بن بشر ..

وفي بغداد حيث الميدان الفسيح للعلم والعلماء آنذاك أتاحت لأحمد الفرصة للارتواء من معين العلم فأخذ عن أساتذة مشهورين بالعلم والتحقيق . ولما تمكن من العلم رحل في طلب المزيد منه الى البصرة والكوفة ثم الى مكة والمدينة المنورة ثم الى اليمن والشام فأخذ عن علماء ذلك العصر ومنهم : يحيى بن سعيد القطان ، ووكيع بن الجراح ،

وسفيان بن عيينة ، وعبد الرزاق بن همام
الصنعاني ، والوليد بن مسلم ، ومعتز بن سليمان ،
وبشر المفضل ، وغندر ، وزيد البكائي ،
وأبو يوسف القاضي . والحسن بن موسى الأشيب ،
واسحاق بن راهويه ، وعلي بن المديني ، ويحيى بن
معين ، والامام الشافعي .

صفاته الظاهرة :

كان الامام سمح الوجه ربعة ليس بالطويل ولا
بالقصير ، نحيل الجسم ، ولما بلغ عمره ثلاثاً وستين
سنة وغلب البياض على السواد في رأسه ولحيته
صار يخضبه بالحناء والكتم اتباعاً لرسول الله صلى
الله عليه وسلم وكان لا يحب المزاح وإذا جلس في
مجلس احترمه الجميع حتى لم يمزحوا بحضرته .

سيرته :

حينما تطلع الامام بالعلم وتأثر بأحاديث
رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل على العبادة
اقبالاً شديداً حتى انه لا يرى الا قارئاً أو محدثاً
أو معلماً أو مصلياً ، وكان لا يفصل لحظة من

ذكر الله تعالى واستغفاره ، وتلاوة القرآن .. وكان
يصلى كل ليلة ويوم ثلاثمائة ركعة ، وبعد ضربه
وضعه اقتصر على مائة وخمسين ركعة . وكان
يختم القرآن حفظاً كل أسبوع .

وقد نقل عنه من زاره فى سجنه أو مرضه أنهم
كانوا اذا حدثوه عن الناس أو عن الدنيا أنشد هذه
الآبيات لصالح بن عبد القدوس :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل
خلوت ولكن قل على رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ما مضى
وأن الذى تخفى عليه يغيب

لهونا عن الأيام حتى تتابع
ذنوب على آثارهن ذنوب

فيا ليت أن الله يغفر ما مضى
وياذن لى فى توبة فاتوب

وقد أعطى موهبة الحفظ فيحفظ الأحاديث فور

سماعها حتى اذا كان الناس يتحدثون حفظ ما ينفع
من قولهم . وقد بلغ من علمه أنه سُئِلَ عن ستين
ألف مسألة فأجاب عنها باخبرنا وحدثنا - فيما
نقله عنه عبد الوهاب الوراق وانتهى علمه الى أن
طبق الآفاق فرحل اليه طلاب العلم من كل حذب
وصوب حتى احتل المنزلة العليا وسمى (امام
دار السلام) .

زُهده :

زُهد الامام أحمد زهد صادق لا مبالغة فيه ،
ولا رهبانية بل بُعد عن متع الدنيا ، وقناعة
بالبسير منها ، وتنزه عن أى مشبوه ، أو غير
معروف مورده من المطعوم والمتمول ، فكان يكتفى
بما يسد رمقه من تمرات أو كسرة خبز مع زيت ،
وقميص يستر بدنه ، وظل يقيه الحر والقر . وليكن
المسجد فهو نعم المكان الذى لا يمل ولا يخلو ساكنه
من فائدة . ولم ينتهز أحمد فرصة واحدة للجلب
منفعة مادية لذاته أو أهله ، ولذلك لم يتقرب من
الملوك رغم تقربهم اليه ، ولم يتمول ما يشغله عن

العلم والتعليم ، ولم تحمل كتب التاريخ صفات
بيوته وتعداد ملابسه وأفعال زوجته وأهله . وهنا
نضع بين يدي القارئ الكريم نموذجين لزهده :

الأول :

قال أبو نعيم في الحلية : « حدثنا سليمان بن
أحمد حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا
علي بن الجهم بن بدر قال : كان لنا جار فأخرج
إلينا كتاباً فقال : أتعرفون هذا الخط ؟ قلنا نعم ،
هذا خط أحمد بن حنبل فقلنا له : كيف كتبت
ذلك ؟ قال : كنا بمكة مقيمين عند سفيان بن عيينة
ففقدنا أحمد بن حنبل أياماً لم نره ثم جئنا إليه
نسأل عنه ، فقال لنا أهل الدار التي هو فيها : هو
في ذلك البيت فجئنا إليه والباب مردود عليه وإذا
عليه خلقان . فقلنا يا أبا عبد الله : ما خبرك لم
نرك منذ أيام ؟ قال : سُرِّقَت ثيابي . فقلت له :
معي دنائير فإن شئت خذها قرصاً ، وإن شئت صلة ،
فأبى أن يفعل . فقلت : تكتب لي بأجرة قال : نعم .
فأخرجت ديناراً وأبى أن يأخذه . وقال : اشتر لي

به ثوباً واقطعه نصفين فاوماً أنه يتزر بنصفه
ويرتدى النصف الآخر ثم كتب لى وهذا خطه . «

الثانى :

نقل المقرئى عن الامام أحمد هذه القصة :

« حج أحمد حجات رافقه فى بعضها يحيى بن
معين ، واتفقا على أنهما بعد انقضاء الحج يمضيان
الى (صنعاء اليمن) يأخذان الحديث عن عبد الرزاق
فوجداه فى الطواف فلما فرغ اجتماعا عليه وكان
أحمد لا يعرف شخصه وانما يعرفه باسمه فقال له
يحيى بن معين : هذا أخوك أحمد بن حنبل فقال :
حياه الله انه ليبلغنى عنه كل ما أسر به ثبته الله
تعالى على ذلك ، ثم واعد يحيى الشيخ على قراءة
فلما انصرفا عنه قال أحمد لابن معين : لم أخذت
على الشيخ الموعد قال له يحيى : قد أراحك الله
مسيرة شهر ورجوع شهر والنفقة . فقال الامام
أحمد : ما كان الله ليرانى وقد نويت نية أفسدها
بما تقول ، ثم سافرا الى (صنعاء اليمن) وأخذوا
عنه بها .

ويجدر التنويه هنا الى أن أحمد حج سبع حجات منها ثلاث ماشياً على قدميه . وفي رحلته هذه كان ماشياً لأنه ليس معه ما يكتري به ظهراً . وقد عرض عليه أناس أن يقرضوه فأبى واشتغل مع الجمالين ليكتسب نفقات رحلته حتى وصل الى (صنعاء) وقد لقي فيها من الضنك ما لا يحد وبقي هناك عامين وقد عرض عليه شيخه أن يأخذ ما يكفيه لنفقاته فأبى . وكان يقتات مما أخذ من الجمالين ، ويعمل أحياناً بيده ، وعلى ظهره في (صنعاء) وقد أثر ذلك في بدنه وظهر شحوب على وجهه وكفيه . وكان يحمد الله على الكسب الذي حصل عليه لأخذه من شيخه عبد الرزاق رواية (الزهري عن سالم بن عبد الله عن أبيه) .

وكان من تواضعه وصفاء ذهنه وسلامة نيته ، وطيبة قلبه أن اسحاق بن ابراهيم سأل في خلافة المتوكل أن يحله عما فعل به من الأذى والضرب في خلافة المعتصم فقال له الامام : « انه قد أحل كل من سعى في ايدائه أو شارك فيه بطريقة من الطرق

ابّان تلك المحنة) فكان خلقه كذلك سمحاً سهلاً
الا اذا انتهكت حرّمات الله أو شم رائحة النيل من
دين الله .

ومن زهده وبعده عن لين العيش أنه لما خلى
سبيله وجلس فى داره وضعت له وسادة من خيش
مكسوة فابتعد عنها وجلس على وسادة له ، وجعل
يواصل الصوم ويفطر كل ثلاث على سويق أورغيف ،
وكان لا يجلس على المائدة بل توضع فى مكان
آخر يأكل منها من سواه ، وكان اذا جهده الحر تبّل
له خرقة فيضعها على صدره .

وحينما أيقن المتوكل أن كل ما فعل بأحمد خطأ
بدأ يستميله فعرض عليه بواسطة رسله أن يجعل
له رزقاً من بيت المال يعيش منه هو وأهله فرفض
بإصرار ، ثم حاول اقناعه بشراء دار له ودعا حاكم
(العراق) ابنه صالحاً ليشترك فى اختيار الدار فلما
أخبر والده قال : لا . ان اشتركت فى هذا الأمر
فهى القطيعة بينى وبينك فلم يقبل شراء الدار .
ثم حاول اقناعه بزيارته والجلوس معه ووعد

باكرامه وتقريبه فرفض وابتعد ولم تجد فيه
محاولة أقاربه وأصدقائه والمقربين للخليفة .

عمله بما علم :

لم ينل أحمد العلم بالهين من الأمور أو بسبب
صدفة نادرة ، ولكنه - بعد توفيق الله تعالى
ومنه - أدرك ذلك بالصبر والملازمة والانقطاع .
ثم بأمر مهم فى هذا السبيل وهو الايمان والصدق
والتطبيق على النفس فوراً . قال - رحمه الله
تعالى - : « ما كتبت حديثاً الا وقد عملت به حتى
مر بى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجم
وأعطى الحجام أبا طيبة ديناراً فاحتجمت وأعطيت
الحجام ديناراً . » وفى الوقت الذى يضاعف جهده
لتحصيل العلم لا يكتفم ما علم ولا يسكت عليه بل
يعلمه للناس ، فقد جلس لتعليم العلم وتدريسه
وهو حدث فى أول العقد الثالث حتى قصده الناس
من كل فج عميق ، وتتلמד عليه مشايخه ، وكبار
العلماء وكان حفظه نادراً حتى انه لا يباريه أحد
ولا يشد منه فاذة . وقد صرف كل لحظة من عمره

فى تحصيل علم أو تعليمه للناس بالقول والعمل والسلوك .. ومنع نفسه من بعض المباحات خشية ميل نفسه للترف أو لين العيش ، أو النظر لما فى أيدى الناس ، فلم تغره الدنيا ، ولم يجتذب بهرجها اللماع فى (بغداد) وما كان يفكر كيف يأكل ويشرب أو يركب أو ينام بل يفكر فى وسيلة للحصول على فائدة ولو بذل لها من دمه وبدنه .

فضائل الامام ومناقبه :

توجد مصنفات عديدة فى فضائل ومناقب الامام ومنها ما ألفه (أبو الفرج ابن الجوزى) ولقد ضربت صفحاً عن ذلك لأمر .

أولاً : ان ذلك ليس من هدفنا فى هذا البحث .

ثانياً : انه موجود لمن أراد الرجوع اليه والاطلاع عليه .

ثالثاً : أنه لا يخلو من المبالغة والانسياق فى رفع الامام درجات فوق منزلته وهذا لا نراه ولا نقره .
رابعاً : أن الناس ميالون الى مثل هذه الأمور التى

تروى فيها الأعاجيب والرؤى ، وهى ليست بحجة ولا تليق بمنزلة العلماء والزهاد الذين حققوا التوحيد وبعثوا عن الشبهات فى حياتهم .

خامساً : انها لا تزيد من قدر الامام أو غيره وقد أفضوا الى ما قدموا فقد انقطع العمل وأفضوا الى ما قدموا ولم يبق لهم سوى ما قدموا وما كتب لهم من الأجر والثواب ، ورحمة الله واسعة . نسأل الله أن يدخلنا فيها وأن يلحقنا بامام الخلق جميعاً سيدنا محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

انتاج أحمد :

يمكن أن نلخص انتاج الامام فى أمرين :

الأول : تلامذته : خلف الامام عدداً من العلماء أخذوا عنه الحديث والفقه وكانوا جهابذة محققين ، خدموا السنة وحققوا مذهب أحمد وكان لهم مؤلفات وتلاميذ الى يومنا هذا . وهذه نتيجة حمل العلم والعمل به ومن تلاميذه عدد من شيوخه كان يأخذ عنهم العلم مثل يزيد بن هارون وعبد الرزاق

وابن مهدي . ومن تلاميذه البخاري ومسلم
وأبو داود ، وعلي بن المديني وابناه صالح وعبد الله
وابن عمه حنبل بن اسحاق - وأبو زرعة الرازي
وأبو بكر أحمد بن محمد بن هانيء الطائفي
وأبو حاتم الرازي . وموسى بن هارون وعثمان بن
سعيد الدارمي ..

الثاني : مؤلفاته : أهم مؤلفات الامام أحمد
(المسند) الذي ارتبط باسمه فلا يذكر الامام الا
ويذكر المسند .. وهو كتاب عظيم القدر كبير
الفائدة . قال عنه الامام : « ان هذا الكتاب قد
جمعتة ، وانتقيته من أكثر من سبعمائة وخمسين
ألفاً فما اختلف فيه المسلمون من حديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم فارجعوا اليه فان كان فيه والا
ليس بحجة . »

وقد التزم بالآل يجعل فيه سوى الحديث الصحيح
المتن والاسناد ، حيث انتهى ما بين الثلاثين والأربعين
ألف حديث ، وجعلها في مسنده ، وشملت هذه

الأحاديث الرواية عن سبعمائة صحابي رضي الله عنهم .

وكان الامام يحفظ السبعمائة والخمسين ألف حديث وغيرها . والمسند الموجود بين أيدي الناس مأخوذ عما دَوَّنَه ' الامام بيده ونقله عنه ابنه (أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد) وقد أمضى الامام سنين طويلة في تأليفه ، وشملت أحاديثه جميع أبواب الحديث التي نظمها المحدثون ، لكن كان جل هدف أحمد من جمع المسند هو انتقاؤه وتخليصه من الشوائب . وقد قرأه بنفسه على ابنه صالح وعبد الله وعلى عمه اسحاق بن حنبل اكمالاً لضبطه ، وصدقاً في روايته .

ومن المناسب هنا أن نثبت السبب في عدم انتشار المسند بين يدي المسلمين جميعاً انتشاراً متداولاً كصححي البخاري ومسلم لأنه رحمه الله - رتبته على أسانيد الصحابة ، ولم يجعله على الترتيب الذي اصطلح عليه المحدثون والفقهاء ، فكان ذلك عائقاً

للبعض عن اتخاذ مرجعه الأول ، وكذلك طوله
وعدم قيام أحد بترتيبه في الزمن الأول ...!

أما ما عدا المسند فلم يهتم الامام أحمد بالتأليف
بعد هذا وانشغل بالتدريس ، لاعتقاده أن العلم
يؤخذ من أفواه الرجال ..

وله بعض رسائل صغيرة كتبها في مناسبات منها:

- ١ - الرد على الجهمية ..
- ٢ - كتاب الصلاة ..
- ٣ - كتاب السنّة ..
- ٤ - كتاب الورع - الايمان ..

المحنة العظيمة

تناول العلماء قديماً وحديثاً البلوى التي امتحن بها أحمد بن حنبل وألفوا فيها كتباً وصحائف ولعل أمراً قد يغفله بعضهم وهو الدس على المسلمين في أصول دينهم ومسائله الحساسة . فان أناساً ورمت أنوفهم أن ينتصر دين الله وأن يسود في الأرض ولكنهم لا يملكون معارضته أو نفيه علناً فهم يندسون في صفوف المسلمين كالمرض الدفين فاذا وجدوا فرصة رفعوا رؤوسهم وبثوا أفكارهم فينخرون في جسم الأمة الاسلامية ويستخدمون في ذلك وسائل متعددة وأهمها :

جلساء السوء والبطانة السيئة :

ان أخطر شيء في حياة الأمة الاسلامية هذا النوع من الناس الذين يندسون الى الحكام ليتقربوا اليهم بما يحبون ويزينوا لهم ما يشتهون حتى يتمكنوا من قلوبهم فيحققوا أهدافهم بواسطتهم

وهكذا كان مسلك المعتزلة الذين خرجوا ببدعة القول بخلق القرآن وأول من قال بذلك رأس المعتزلة (الجعد بن درهم) فى عصر الأمويين ولكنه قضى عليه فى مهده حين ضحى به الأمير الشهم (خالد بن عبد الله القسري) أمير الكوفة بأمر هشام ابن عبد الملك . فقد أحضر الجعد موثقاً بالقيود الى المصلى وعندما انتهى خالد من خطبته قال :

«أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فانى مضح بالجعد بن درهم لأنه يقول : لم يكلم الله موسى تكليماً ولم يتخذ الله ابراهيم خليلاً تعالى الله عما يقول علواً كبيراً ثم نزل من المنبر وقتله ...

ثم ظهرت هذه البادرة بعد حين دعا لها (الجهم ابن صفوان) ووجد لها بعض أنصار ثم خمد هذا القول ما عدا بعض جذور مستترة ولم تبد بعد ذلك سوى مرة فى عهد الرشيد ولكنه قضى عليها وأرهب من تسول له نفسه القول بها وقد أثبت ذلك أبو الفرج بن الجوزى فقال :

« لم يزل الناس على رأي السلف وقولهم ان القرآن كلام الله غير مخلوق حتى نبغت المعتزلة فقالوا بخلق القرآن وكانوا يستترون بذلك الى زمن الرشيد حتى ان الرشيد قال يوماً : بلغنى أن بشراً المريسي يقول : القرآن مخلوق والله عليّ أن أظفرنّى الله به لأقتلنه قتلة ما قتلت بها أحداً قبله ولما علم بشر بذلك ظل متوارياً أيام الرشيد نحواً من عشرين سنة فلما توفي الرشيد كان الأمر كذلك فى زمن ولده الأمين فلما ولي المأمون خالطه قوم من المعتزلة فضللوه وحسنوا له القول بخلق القرآن . »

وهى كذلك لم تبلغ مبلغها ، ولم تنتقل الى امتحان وابتلاء الا حين خطط الأعداء لها وتوصلوا الى ادخال البلاط الملكي زعيمين من زعمائهم :

الأول : أبو الهذيل العلاف حيث كان مؤدباً وأستاذاً للمأمون حتى أدخل عليه هذه المعتقدات .

والثاني : أحمد بن أبى دؤاد الذى تقرب الى المأمون حتى بلغ منصب الوزارة ، وكان عالماً لبقاً

استخدم علمه في تسخير الخليفة المأمون بقبول رايه
في القول بخلق القرآن . ولم يكن اقناع المأمون
وهو العالم الأريب الأديب بالشيء السهل ، ولكن
ابن أبي دؤاد - كما قلت - عاش حياته ينتظر
فرصة واحدة يستلب بها موافقة المأمون .. فما هي
الا أن حانت فرصة في لحظة من اللحظات النادرة اذ
مرض الخليفة القوي ، صعب الشكيمة - وابن
أبي دؤاد - جليسه ونديمه يعرف حركاته وسكناته
وانفعالاته - فلما سنحت اللحظة الحاسمة .. التي
لم يدركها سواه حيث ينتظرها كل حياته - وكان
المأمون بعيداً عن بقية رجاله المخلصين له - حيث
مرض (بطرطوس) أحد موانئ الشام فحرر ابن
أبي دؤاد رسالة الى عدد من العلماء والقضاة تلزمهم
بالقول بخلق القرآن : ووقعها المريض : ووزعها
أتباع ابن أبي دؤاد : وهذا نصها :

« أما بعد ، فان حق الله على أئمة المسلمين
وخلفائهم الاجتهاد في إقامة دين الله الذي استودعهم ،
والعمل بالحق في رعيتهم ، والتسخير لطاعة الله

فيهم .. والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة
 الرشيد وصريمته ، والاقساط فيما ولاه الله من
 رعيته برحمته ومنته . وقد عرف أمير المؤمنين أن
 الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية
 وسنلة العامة ، ممن لا نظر له ولا روية ولا استدلال
 له بدلالة الله وهدايتة ، ولا استضاءة له بنور العلم
 وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق . أهل جهالة
 بالله وعمى عنه ، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده
 والايما ن به ، ونكوب عن واضحات اعلامه وواجب
 سبيله ، وقصور أن يقدرُوا الله حق قدره ، ويعرفوه
 كنه معرفته ، ويفرقوا بينه وبين خلقه لضعف
 آرائهم ، ونقص عقولهم وجفائهم عن التفكير
 والتذكير . وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى
 وبين ما أنزل من القرآن . فأطبقوا مجتمعين ،
 واتفقوا غير متعارفين على أنه قديم أزلى لم يخلقه الله
 ويحدثه ويختمه ، وقد قال الله عز وجل في محكم
 كتابه الذي جعله لما فى الصدور شفاء ، وللمؤمنين
 رحمة وهدى : (انا جعلناه قرآنا عربيا) فكل
 ما جعله الله فقد خلقه . وقال (الحمد لله الذى خلق

السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) وقال عز وجل : (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق) فأخبر الله قصصاً لأُمُور حدثت بعدها ، وتلا به تقدمها وقال : (المر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ..) وكل محكم مفصل فله محكم مفصل والله محكم كتابه ومفصله فهو خالقه ومبتدعه . ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم ونسبوا أنفسهم إلى السُّنَّة ، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته ، مبطل قولهم ومكذب دعواهم يرد عليهم قولهم ونحلتهم ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة فاستطالوا بذلك على الناس ، ومردوا به الجهال ، حتى قال قوم من أهل السمات الكاذب والتخشع لغير الله ، والتكشف لغير الدين إلى موافقتهم عليه ، ومواطأتهم على سيئ آرائهم تزيناً بذلك عندهم وتصنعاً للعدالة والرئاسة فيهم ، فتركوا الحق إلى باطلهم واتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم ، فقبلت بتزكيتهم لهم شهادة

ونفذت أحكام الكتاب بهم على دغل أمنهم ، ونفل
أديمهم ، وفساد نياتهم و يقينهم ، وكان ذلك غايتهم
التي اليها جروا واياها طلبوا فى متابعتهم ، والكذب
على مولاهم وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا
على الله الا الحق ودرسوا ما فيه أولئك الذين أصمهم
الله فأعمى أبصارهم : (أفلا يتدبرون القرآن أم
على قلوب أقفالها .)

فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ورؤوس
الضلالة المنقوصون من التوحيد حظاً والمبخوسون
من الايمان نصيباً وأوعية الجهالة وأعيان الكذب
ولسان ابليس الناطق فى أوليائه ، والمائل على
أعدائه من أهل دين الله ، وأحق من يتهم فى صدقه ،
وتطرح شهادته . ولا يوثق بقوله ولا عمله فانه
لا عمل الا بعد يقين ، ولا يقين الا بعد استكمال
حقيقة الاسلام واخلاص التوحيد ، ومن عمي عن
رشده وحظه من الايمان بالله وتوحيده ، كان عما
سوى ذلك من عمله والقصد فى شهادته أعمى
وأضل سبيلا ..

ولعمر أمير المؤمنين أن أحجى الناس بالكذب فى قوله وتغرض الباطل فى شهادته ، من كذب على الله فى وحيه ، ولم يعرف الله حقيقة معرفته ، ان أولاهم برد شهادته فى حكم الله وزمته من رد شهادة الله ، وبهت حق الله مماثلة ..

فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا اليك فابدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشفهم عما يعتقدون فى خلق القرآن واحداً ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستهين فى عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه ، وخلوص توحيده و يقينه ...

فاذا أقرؤا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ، ومساءلتهم عن علمهم فى القرآن ، وترك اثبات شهادة من لم يقرأه مخلوق محدث ولم يره ، والاستناع من توقيعها عنده ...

واكتب الى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاء أهل
عملك في مساءلتهم ، والأمر لهم بتمثل ذلك ثم
أشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله
الا لشهادة أهل البصائر في الدين والاخلاص
للتوحيد .

واكتب الى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك
ان شاء الله » .

وبهت الناس عندما قرأوا تلك الرسالة وتردد
بعضهم ، وخاف أكثرهم ، وتسلب دعاة الشر
بسلاح هذه الرسالة طالبين تنفيذها ، وهم في
قرارة أنفسهم ينفذون بدعتهم وكيدهم للاسلام
وفي الظاهر يتابعون تنفيذ أوامر السلطان ، وقد
تمادوا في ذلك فاستعانوا بقوة الشرطة وركزوا
على من يطاع أمره ويتبع رأيه ، يحضرون اليه في
بيته أو يطلبونه للقصر فيقولون له أمام جماعته :
ما يقول في القرآن ؟ أهو منزل أم مخلوق ؟ فان
قال : انه منزل عذبه .. وان قال انه مخلوق
تركوه ..

الى أن وصل الحال بأحمد بن حنبل فانهم أحضروه وقالوا له : ما تقول فى القرآن ..؟ فيقول : هو كلام الله ، فيقولون له : هل هو مخلوق ؟.. فيقول : هو كلام الله .. فيقولون : قل انه مخلوق فلا يجيب ولا يزيد على قوله : انه كلام الله ؛ ولما صاولوه وصمد أمام تهديدهم قيدوه وحملوه الى (طرطوس) ليقابل الخليفة (المأمون) وشاء الله أن يتوفى المأمون قبل وصول الامام اليه ، وبعد تولى خليفته وأخيه (المعتصم) بأيام زعموا أن المأمون أوصى لأخيه أن يستمر بالقول بخلق القرآن .. فبقي الامام أحمد فى السجن ، ولما فرغ له المعتصم ، استدعاه بتدبير ابن أبى دؤاد الذى بقي فى وزارته للمعتصم أيضاً ..

فحاجّه المعتصم بنفسه وهدده ثم أغراه بالمال والجاه ، ولكنه لم يلق ولم يغير موقفه ، فكان يقول : (القرآن كلام الله منزل غير مخلوق) فجُلد فى مجلس المعتصم ، وضُرِبَ بالسياط الى أن أغمي عليه فاذا أفاق قيل له : تقول بخلق القرآن ؟ فيقول : هو كلام الله ، حتى بلغ به الحال أن أغمي

عليه من شدة الضرب ، فينخس بالسيف فى بدنه
فلا يحس ، فاذا أفاق لم يسمع منه سوى ذكر الله .
ثم أعادوه للسجن وبقي فيه مضيقاً عليه عامين
ونصف عام ، وكانوا كلما علموا أن جراحه قد
برئت عادوا يحاولون التأثير عليه فيبقى مصراً على
رأيه فيعاد للسجن فى بغداد بعد الإهانة والتعذيب ،
وتوفي المعتصم وتولى الواثق الذى تبع سلفيه ، الا
أنه لم يعذب الامام بل اكتفى بمنعه من التدريس
والاجتماع بالناس ، وفرض عليه الإقامة الجبرية فى
منزله .

وتوفي الواثق وخلفه المتوكل فاختر الامام
وكلّمه مرات وجادله وعرض عليه المال فلم يقبله .

المناقشة :

من قراءة الرسالة الأولى ، يبدو جلياً أنها ليست
من املاء ولا من كتابة المأمون لما يلى :

١ - مجيئ التعبير بلفظ الغائب (ان أمير
المؤمنين) ؛

٢ - وجود عبارات شاذة لا يليق بخليفة المسلمين

النطق بها فى خطابہ للعلماء والفقهاء وكبار
الرعية .

٣ - الاستعلاء والكبرياء فى التعبير وهذا
لا يناسب ذكاء وأدب المأمون المعروف بالعلم
والفصاحة والذوق .

٤ - ان عدم سلامة الهدف واضح فى هذه
المحنة ، والا فان ما وسع من قبلهم يسعهم ، وامتحان
الناس على هذه الصورة مما يدفعهم فى الفتنة
ويوجد عندهم القلق والبلبله والشك فى دينهم
فلم يأمر الله عباده ولا أمرهم رسوله بأن يبتلوا
الناس بهذا الامتحان الشاق ويعرضوهم للأذى
والوقوع فى مزالات الأقدام ، ومصارع الشك
والريب ، فغالبهم لا يدرك هذا الأمر ، ولا يعرف
مدى الفرق بين القول بخلق القرآن أو عدم خلقه

٥ - التطويل الذى زاد عن الحد فى الرسالة
وهذا ليس من أساليب الحكام وخاصة فى مثل بحث
شائك كهذا ، والتطويل فيه يعرض للخطأ ويوجد
مستمسكات للخصم ، ويوهن من حجة الكاتب .

٦ - سلوك الحاجة فى الخطاب واكثر الأدلة دليل على أن صاحب الرسالة ند أو أقل من ند للمخاطب ، فهو يستعين على حجته بالدليل ومحاولة الاقناع . ولأجل هذا ذهب كثير من النقاد الى أن ابن أبى دؤاد ، هو الذى أعد هذه الرسالة وما سيأتى بعدها من رسائل . وانتهز الفرصة التى كان ينتظرها منذ زمن طويل ليقعها المأمون على علاتها .

الرسائل :

سنورد هنا رسائل ثلاثا تلت الرسالة الأولى ، وكلها متقاربة ومن منشأ واحد ، ولن نناقش هذه الرسائل أو نضنها ، ولكننا نوردنا من أجل معرفة تطور المحنة . وموقف الخصمين ليطلع المهتمون لهذا الحدث العظيم على مجرياته وطريقة سيره ، وليحذر الغيورون على الاسلام - من حكام وعلماء وبطانة - من استغلالهم لأي فتنة شخصية أو عامة تحت أي مبدأ وأي ستار ومع ذلك فهي قطع أدبية تعطينا فكرة عن الأساليب ونهج الكتابة فى ذلك العصر .

الرسالة الأولى :

هذه الرسالة عبارة عن أمر الخليفة لعامله على العراق اسحاق بن ابراهيم أن يبعث اليه سبعة من كبار المحدثين في بغداد ، وهم محمد بن سعد ، وأبو مسلم ، ويحيى بن معين ، وزهير بن حرب ، واسماعيل بن داود ، واسماعيل بن أبي مسعود ، وأحمد بن ابراهيم الدورقي .

ولما مثلوا بين يديه أجابوا لما دعاهم له ، فأعادهم الى بغداد وأمر عامله عليها أن يعلن أقوالهم للعامة . ولما علم الامام أحمد بما حصل منهم اغتم لذلك كثيراً وقال : « انهم أول من ثلم هذه الثمرة » .. وقال : « لو كانوا صبروا وقاموا لله لكان انقطع الأمر وحذرهم الرجل ولكن لما أجابوا وهم عين البلد اجترأ على غيرهم » .

الرسالة الثانية :

قد نقل ابن جرير نص هذه الرسالة كما يلي :
« أما بعد : فان من حق الله على خلفائه في أرضه وأمنائه على عباده الذين ارتضاهم لاقامة

دينه، وحملهم رعاية خلقه ، وامضاء حكمه وسنته ،
والإثتمام بعدله فى بريته ، أن يجهدوا لله أنفسهم
وينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم ، ويدلوا عليه
تبارك وتعالى بفضل العلم الذى أودعهم ، والمعرفة
التي جعلها فيهم ، ويهدوا اليه من زاغ عنه ، ويردوا
من أدبر عن أمره وينهجوا لرعاياهم سمت نجاتهم ،
ويقفوهم على حد ايمانهم وسبيل فوزهم وعصمتهم ،
ويكشفوا لهم عن معطيات أمورهم ومشتبهااتهم عليهم
بما يدفعون الريب عنهم ، ويعود بالضياء والبيئة
على كافتهم وأن يؤثروا ذلك من ارشادهم وتبصيرهم ،
اذ كان جامعاً لفنون مصانعهم ومنتظماً لحظوظ
عاجلتهم وآجلتهم ويتذكروا ما الله مرصد من
مساءلتهم عما حملوا ، ومجازاتهم بما أسلفوا وقدموا
عنده وما توفيق أمير المؤمنين الا بالله وحده وحسبه
الله وكفى به . ومما بينه أمير المؤمنين برويته ،
وطالعه بفكره فتبين عظيم خطره وجليل ما يرجع
فى الدين من وكفه وضرره ما يناله المسلمون بينهم
من القول فى القرآن الذى جعله الله اماماً لهم ،
وأثراً من رسول الله وصفيه صلى الله عليه وسلم ،

باقبالهم ، واشتباهاه على كثير منهم حتى حسن
 عندهم وتزين في عقولهم ، ألا يكون مخلوقاً
 فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله الذى بان عن خلقه
 وتفرد بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته
 وانشائها بقدرته والتقدم عليها بأوليته التى
 لا تبلغ أولها ولا يدرك مداها ، وكان كل شيء
 دونه خلقاً من خلقه وحدثاً هو المحدث له ، وان كان
 القرآن ناطقاً به ودالاً عليه وقاطعاً للاختلاف فيه ،
 وضاهوا به قول النصارى فى ادعائهم بعبسى بن مريم
 أنه ليس بمخلوق وان كان كلمة الله ، والله عز وجل
 يقول : « انا جعلناه قرآناً عربياً » وتأويل ذلك أنا
 خلقنا كما قال جل جلاله : « وجعل منها زوجها
 ليسكن اليها » وقال : « وجعلنا الليل لباساً وجعلنا
 النهار معاشاً » « وجعلنا من الماء كل شيء حي »
 فسوى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التى
 ذكرها فى شبه الصنعة وأخبر أنه جاعله وحده
 فقال : « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » فقال
 ذلك على احاطة اللوح بالقرآن ولا يحاط الا
 بمخلوق .

وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « لا تحرك به لسانك لتعجل به » وقال : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث » وقال : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته » وأخبر عن قوم ذمهم بكذبهم أنهم قالوا : (ما أنزل الله على بشر من شيء) ثم كذبهم على لسان رسوله فقال لرسوله : (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى) فسمى الله تعالى القرآن قرآنًا وذكرى وإيماناً ونوراً وهدى ومباركاً وعربياً وقصصاً فقال : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) وقال : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) وقال : (قل فاتوا بعشر سور من مثله مفتريات) وقال : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) فجعل له أولاً وآخرأ ودل عليه أنه محدود مخلوق .

وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم فى القرآن الثلم فى دينهم والجرح وسهلوا السبيل لعدو الاسلام ، واعترفوا بالتبديل والاحاد على قلوبهم حتى عرفوا

ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التي هي له وحده
وشبهوه به والأشباه أولى بخلقه .

وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة
حظاً في الدين ، ولا نصيباً من الايمان واليقين .
ولا يرى أن يحل أحداً منهم محل الثقة في أمانة
ولا عدالة ولا شهادة ، ولا صدق في القول ولا
حكاية ، ولا تولية لشيء من أمر الرعية ، وان ظهر
بعضهم وعرف بالسداد سدد فيهم فان الفروع
مردودة الى أصولها ، ومحمولة في الحمد والذم
عليها ومن كان جاهلاً بأمر دينه الذي أمر الله به
من وحدانيته فهو بما سواه أعظم جهلاً ، وعن
الرشد في غيره أعمى وأضل سبيلاً . فاقراً على
جعفر بن عيسى ، وعبد الرحمن بن اسحاق القاضي
كتاب أمير المؤمنين بما كتب به اليك ، وأنصصهما
عن علمهما في القرآن وأعلمهما أن أمير المؤمنين
لا يستعين على شيء من أمور المسلمين الا بمن وثق
باخلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيد لمن لم يقر بأن
القرآن مخلوق ، فان قالوا بقول أمير المؤمنين في
ذلك فتقدم اليهما في امتحان من يحضر مجالسهما

بالشهادات على الحقوق ونصصهم على قولهم فى القرآن فمن لم يقل منهم انه مخلوق أبطلا شهادته ولم يقطعا حكماً بقوله ، وان ثبت عفاfe بالقصد والسداد فى أمره ، وافعل ذلك بمن فى سائر عملك من القضاة وأشرف عليهم اشرافاً يزيد الله به ذا البصيرة فى بصيرته ويمنع المرتاب من اغفال دينه واكتب الى أمير المؤمنين بما يكون منك فى ذلك - ان شاء الله - .

الرسالة الثالثة :

وفى الطبرى أيضاً نص هذه الرسالة وهو :
« بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد : فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك جواب كتابه ، كان اليك فيما ذهب اليه متصنعة أهل القبلة وملتمسو الرئاسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة من القول فى القرآن وأمرك به أمير المؤمنين من امتحانهم وتكشيف أحوالهم واحلالهم محالهم تذكر احضارك جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن اسحاق عند ورود كتاب أمير المؤمنين مع من أحضرت ممن كان ينتسب الى الفقه ويعرف بالجلوس للحديث وينتصب نفسه للفتيا

بمدينة السلام وقراءتك عليهم جميعاً كتاب أمير المؤمنين ومسألتك إياهم عن اعتقادهم فى القرآن والدلالة لهم على حظهم واطباقهم على نفى التشبيه واختلافهم فى القرآن وأمرك من لم يقل منهم انه مخلوق بالامساك عن الحديث والفتوى فى السر والعلانية وتقدمك الى السندي وعباس مولى أمير المؤمنين بما تقدمت به فيهم الى القاضيين بمثل ما مثل لك أمير المؤمنين من امتحان من يحضر مجالسهما من الشهود وبث الكتب الى القضاة فى النواحي من عملك بالقدوم عليك لتحملهم وتمتحنهم على ما حده أمير المؤمنين وتثبيتك فى آخر الكتاب أسماء من حضر ومقالاتهم وفهم أمير المؤمنين ما اقتضت وأمير المؤمنين يحمد الله كثيراً كما هو أهله ويسأله أن يصلي على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ويرغب الى الله فى التوفيق لطاعته وحسن المعونة على صالح نيته برحمته .

وقد تدبر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سألت عن القرآن وما رجع اليك فيه كل امرئ

منهم وما شرحت من مقالتهم فأما ما قال المفرور
(بشر بن الوليد) فى نفي التشبيه وما أمسك عنه
من أن القرآن مخلوق وادعى من تركه الكلام فى
ذلك واستعهاده أمير المؤمنين فقد كذب بشر فى ذلك
وكفر وقال الزور والمنكر ولم يكن جرى بين أمير
المؤمنين وبينه فى ذلك ولا فى غيره عهد ولا نظر
أكثر من اخباره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة
الاخلاص والقول بأن القرآن مخلوق فادع به اليك
وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك وأنصصه
عن قوله فى القرآن واستتبه منه فان أمير المؤمنين
يرى أن تستتيب من قال بمقالته اذ كانت تلك
المقالة الكفر الصراح والشرك المحض عند أمير
المؤمنين فان تاب منها فأشهر أمره وأمسك عنه وان
أصر على شركه ودفع أن يكون القرآن مخلوقاً بكفره
والحاده فاضرب عنقه وابعث الى أمير المؤمنين برأسه .

وكذلك ابراهيم بن المهدي فامتحنه بمثل
ما تمتحن به بشراً . فان يقول بقوله — وقد بلغت
أمير المؤمنين عنه بوالغ — فان قال : ان القرآن

مخلوق فأشهر أمره واكشفه والا فاضرب عنقه
وابعث الى أمير المؤمنين برأسه .

وأما علي بن أبي مقاتل فقل له : ألسنت القائل
لأمير المؤمنين انك تحلل وتحرم والمكلم له بمثل
ما كلمته به مالم يذهب عنه ذكره .

وأما الذيال بن الهيثم فأعلمه أنه كان في الضعاف
الذي كان يسرقه في الأنبار وفي ما يستولى عليه
من أمر مدينة أمير المؤمنين (أبي العباس) ما يشغله
وأنه لو كان مقتفياً آثار سلفه وسالكاً مناهجهم
ومحتذياً سبيلهم لما خرج الى الشرك بعد إيمانه .

وأما أحمد بن يزيد المعروف بـ (أبي العوام)
وقوله : لا يحسن الجواب في القرآن فأعلمه أنه
صبي في عقله لا في سنه جاهل وأنه اذا كان
لا يحسن الجواب في القرآن فسيحسنه اذا أخذه
التأديب ، ثم ان لم يفعل كان السيف من وراء ذلك
— ان شاء الله — .

وأما (أحمد بن حنبل) وما تكتب عنه فأعلمه

أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة ،
وسبيله فيها ، واستدل على جهله وآفته بها .

وأما الفضل بن غانم ان لم يخف على أمير المؤمنين
ما كان منه بمصر واما اكتسب من الأموال في أقل
من سنة . وما شجر بينه وبين المطلب بن عبد الله
في ذلك فانه ما كان شأنه شأنه وكانت رغبته في
الدينار والدرهم رغبته فليس بمستنكر أن يبيع
ايمانه طمعاً فيهما وايتاراً لعاجل نفعهما ، وأنه مع
ذلك القائل لعلي بن هشام ما قال ، والمخالف له
فيما خالفه فما الذي حال ذلك ونقله الى غيره .

وأما الزيادي فأعلمه أنه كان منتحلاً لأول دعي
كان في الاسلام خولف فيه حكم رسول الله صلى الله
عليه وسلم وكان جديراً أن يسلك مسلكه ولكن
أنكر (أبو حسان) أن يكون مولى لزياد أو يكون
مولى لأحد من الناس وذكر أنه انما نسب لزياد بن
أبيه لأمر من الأمور .

وأما المعروف بـ (أبي نصر التمار) فان أمير
المؤمنين شبه خساسة عقله بخساسة متجره .

وأما المفضل بن الفرخان فأعلمه أنه حاول بالقول الذى قاله فى القرآن أخذ الودائع التى أودعها اياه (عبد الرحمن بن اسحاق) وغيره تربصاً بما استودعه وطمعاً فى الاستكثار لما صار فى يده ، ولا سبيل عليه عن تقادم عهده وتطاول الأيام به فقل لعبد الرحمن بن اسحاق لا جزاك الله خيراً عن تقويتك مثل هذا وايمانك اياه ، وهو معتقد للشرك منسلخ من التوحيد .

وأما محمد بن حاتم وابن نوح والمعروف ب (أبى معمر) فأعلمهم بأنهم مشاغيل بأكل الربا عن الوقوف على التوحيد ، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم فى الله ومجاهدتهم الا لاربائهم وما نزل به كتاب الله فى أمثالهم لاستحل ذلك فكيف بهم وقد جمعوا مع الارباء شركاً وصاروا للنصارى مثلاً .

وأما أحمد شجاع فأعلمه أنك صاحبه بالأمس والمستخرج منه ما استخرجته من المال الذى كان

استحلّه من مال علي بن هشام وأنه ممن الدرهم
والدينار دينه .

وأما سعدويه الواسطي فقل له قبح الله رجلا بلغ
به التصنع للحديث والتزين به والحرص على طلب
الرياسة فيه أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقرب
بها متى يمتحن فيجلس للحديث .

وأما المعروف بسجاده (١) وانكاره أن يكون سمع
ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه القول
بأن القرآن مخلوق فأعلمه أنه في شغله بأعداد
النوى وحكه لإصلاح سجاده وبالودائع التي دفعها
إليه (علي بن يحيى) وغيره وما أذهله عن التوحيد
ولهاه . ثم سلّه عما كان يوسف بن أبي يوسف
ومحمد بن الحسن يقولانه أن كان شاهدهما
وجالسهما .

وأما القواريري ففيما تكشف من أحواله وقبوله
الرشا والمصانعات ما أبان عن مذهبه ، وسوء

(١) سجاده هو الحسن بن حماد .

طريقته ، وسخافة عقله ودينه ، وقد انتهى الى أمير المؤمنين أنه يتولى (جعفر بن عيسى الحسيني) مسأله فتقدم الى (جعفر بن عيسى) فى رفضه وترك الثقة به والاستقامة اليه .

وأما يحيى بن عبد الرحمن العمري فان كان من ولد (عمر بن الخطاب) فجوابه معروف .

وأما محمد بن الحسن بن علي بن عاصم فانه لو كان مقتدياً بمن مضى من سلفه لم ينتحل النحلة التى حكيت عنه وأنه يعد صبيّاً يحتاج الى تعلم . وقد كان أمير المؤمنين وجه اليك المعروف (بأبى مسهر) بعد أن نصه أمير المؤمنين عن محنته فى القرآن فجمجم عنها ولجلج فيها حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف فأقر دميماً فأنصصه عن اقراره فان كان مقيماً عليه فأشهر ذلك وأظهره . ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمر المؤمنين فى كتابك وذكر أمير المؤمنين لك أو أمسك عن ذكره فى كتابه هذا ولم يقل ان القرآن مخلوق بعد (بشر ابن الوليد) و (ابراهيم بن المهدي) فاحملهم

أجمعين موثقين الى عسكر أمير المؤمنين مع من/يقوم بحفظهم وحراستهم فى طريقهم حتى يوديعهم الى عسكر أمير المؤمنين، ويسلمهم الى من يؤمن لتسليمهم اليه لينصحهم أمير المؤمنين فان لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعاً على السيف ان شاء الله ولا قوة الا بالله.

وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا فى خريطة (١) بدارية ولم ينتظر به اجتماع الكتب الخرائطية معجلاً به تقريباً الى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ورجاء ما اعتمد وادراك ما أمل من جزيل ثواب الله عليه فأنفذ لما أتاك من أمر أمير المؤمنين وعجل اجابة أمير المؤمنين بما يكون منك فى خريطة بدارية مفردة عن سائر الخرائط ليعرف أمير المؤمنين بما يعملونه ان شاء الله .

ومن قراءة هذه الرسالة تبدو المناقشة التى أثبتناها عند أول رسالة واضحة جلية هنا ففيها تحامق وفيها سباب على طريقة النساء اللاتى

(١) يعنى خص هذا الكتاب بجعله يكيس من قماش نعلها من جلد فيه رباطها للعناية به ولم يجعله مع الكتب العامة ويعمله البريد المعتاد .

لا يقوين على سواء ولا يليق هذا النهج بحاكم
يلوح أحياناً بالحمل على السيف وبقطع الرأس
وبعثة اليه .

ويبدو فيها التناقض ، وعدم الاتزان فى التعبير
والمناقشة ، ويظهر فيها سقوط سهم المتكلم فقد
ضرب خصمه بأخر سهم من قوسه وهو ضعيف لكنه
سيستنفده ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن المحرر
لهذه الرسائل أتباع (أحمد بن أبى دؤاد) الذين
يحركون الفتنة لتشغل المسلمين عن الأهم ، ولتذهب
بفضل الحكام والعلماء حتى يبقى الناس فوضى
لا سراة لهم فتعم الفتنة ، ويحصل الارتباك ، ولكن
الله وقى المسلمين من أثرها ونجى الامام (أحمد)
منها وكانت العاقبة له كما سنتبينه فيما يأتى
إن شاء الله .

وكل هذه الأسماء التى وردت فى هذه الرسالة
تم استدعاء أصحابها ونصوا - على حد تعبير كاتب
الخليفة - فوافقوا جميعاً وتردد ثلاثة منهم وبعد
التعذيب وافقوا متأولين التقية وثبت الامام ثبوت

الراسيات ، وكان لا يفضب من اخوانه العلماء بل يجد لهم مبرراً فيقول : (أليسوا قد حبسوا وقيدوا والله تعالى يقول : « الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان » والقيد كره والحبس كره والضرب كره فأما من لم ينل بمكروه فلا عذر له) .

التفسير والسجن لأحمد :

عندما أعيت الحيل المحققين والمناظرين الأول وبقى الامام مصراً على رأيه ، وكان معه (محمد ابن نوح) رأى من حول الخليفة أن يشخص (أحمد) اليهم في (طرطوس) لابعاده عن بغداد ومناصريه فيها من العلماء وسواد الناس ، ولمحاولة الضغوط والتأثير عليه من قرب ، فأمر اسحق بن ابراهيم عامل بغداد أن يبعث بالرجلين مقيدتين مهانين على بعير ومعهما مرافق يقال له (أحمد بن غسان) وقد نقل (أبو نعيم) في (الحلية) حديث أحمد بن غسان قال : « حملت أنا وأحمد بن حنبل في محمل يراد بنا المأمون فلما صرنا قرب (عانة) قال لي أحمد : قلبي يحس أن (رجاء الحضاري) يأتي هذه

الليلة فان اتى وأنا نائم فأيقظنى فلم يك' بأسرع
 أن خرج علينا رجاء الحضاري فقال : أين هؤلاء
 الأشقياء ؟ فقال أحمد بن حنبل : يا عدو الله أنت
 تقول القرآن مخلوق ونكون نحن الأشقياء ؟! قال :
 فأنزلنا من المحامل وصيرنا فى خيمة فما مضى الثلث
 الأول من الليل الا ونحن بصيحة وضجة واذا رجاء
 الحضاري قد أقبل علينا فقال : صدقت يا أبا عبد الله
 القرآن كلام الله غير مخلوق ، قد مات - والله -
 أمير المؤمنين وكان أن سمع دعاء الامام فى جوف
 الليل يقول : اللهم سدد خطاي واهدني سواء
 السبيل . قال : فلما صرنا الى (أذنه) ورحلنا منها
 وفتح لنا بابها لقينا رجلا داخل ونحن خارجون
 فقال : البشرى قد مات الرجل . وكان الامام يدعو
 الله ألا يراه ، قال ابن الامام (صالح) : فصار أبى
 ومحمد بن نوح الى طرطوس وجاء نعي المأمون
 فردا فى أقيادهما الى « الرقة » وأخرجنا من الرقة
 فى سفينة مع قوم محبسين فلما صاروا « بعانة » توفى
 محمد بن نوح رحمه الله - وتقدم أبى فصلى عليه
 ثم صار أبى الى بغداد وهو مقيد فمكث « بالياسرية »

أياماً ثم صير الى الحبس فى دار «التريت» عند دار «عمارة» ثم نقل بعد ذلك الى حبس العامة فى «درب الموصلية» فمكث فى الحبس منذ أخذ وحمل الى أن ضرب وخلي عنه ثمانية وعشرين شهراً ، قال أبى : فكنت أصلى بهم وأنا مقيد . وكنت أرى «بوران» يحمل له فى دورق ماء بارداً فنذهب به اليه فى المسجد « وبوران صديق لأحمد ومقرب لمدير السجن » .

وقد استمر أحمد فى سجنه يؤم الناس ويرشدهم ويعلمهم الحديث ويظل على محبرته وورقته يدون فيها مسائله ويمحص فيها المتن والاسناد فى الأحاديث ، وتفرغ لقراءة كثير من الكتب التى تقع فى يده وكتبَ كثيراً .

وقد حاول المخلصون اخراجه من السجن ، ولكن محاولتهم باءت بالفشل ، وبقي فقط عمه « اسحق ابن حنبل » يحاول ويتردد على من يظن أنه يستطيع أن يقول شيئاً ، وفى احدى زياراته لاسحق بن ابراهيم ألح عليه فأذن له بزيارته ، وبعث معه

حاجبه بعد أن أمره أن يسجل له كل كلمة يقولانها،
 قال عمه : - كما نقله المقرئ في المقفى - :
 « فدخلت على أبي عبد الله ومعى حاجبه فقلت
 يا أبا عبد الله : قد أجاب أصحابك وقد أعذرت
 فيما بينك وبين الله وبقيت أنت في الحبس والضيق
 فقال : يا عمى إذا أجاب العالم تقية والجاهل يجهل
 متى يتبين الحق فأمسكت عنه ، ثم قال وقد ذكر
 ما روى في التقية - من الأحاديث كيف تصنعون
 بحديث (خباب) « ان من كان قبلكم ينشر أحدهم
 بالمنشار ثم لا يصدده ذلك عن دينه » ؟ فيئسنا منه ،
 وقال : لست أبالي بالحبس ولا القتل بالسيف » وفى
 أثناء سجنه نقل الى دار اسحق بن ابراهيم وقد
 وصف ذلك الامام نفسه فيما نقله أبو نعيم فى
 الحلية هكذا : « حدثنا محمد بن جعفر وعلي بن
 أحمد والحسين بن محمد قالوا : حدثنا محمد بن
 اسماعيل حدثنا أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل
 قال : قال أبى رحمه الله : لما كان فى شهر رمضان
 ليلة سبع عشرة خلت منه حولت من السجن الى دار
 اسحق بن ابراهيم وأنا مقيد بقيد واحد فيوجه الي

فى كل يوم رجلان هما أحمد بن رباح وأبو شعيب
 الحجام يكلمانى ويناظرانى ، فاذا أرادا الانصراف
 دعى بقيد فقيدت به ، فمكثت على هذه الحال ثلاثة
 أيام ، وصار فى رجلى أربعة أقياد ، فقال لى
 أحدهما فى بعض الأيام فى كلام دار ، وسألته عن
 علم الله فقال : علم الله مخلوق فقلت : كفرت .
 فقال لى الرسول الذى يحضر معهم من قبل الخليفة
 هذا رسول أمير المؤمنين . فقلت : ان هذا قد كفر
 وكان صاحبه الذى يحضر معه خارجاً فلما دخل
 قلت : ان هذا زعم أن علم الله مخلوق فنظر اليه
 كالمنكر عليه ما قال . ثم انصرفا قال أبى :
 وأسماء الله فى القرآن والقرآن من علم الله فمن
 زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر ، ومن زعم أن
 أسماء الله مخلوقة فقد كفر . قال أبى : فلما كانت
 الليلة الرابعة بعد العشاء الآخرة ، وجه المعتصم
 (ببغدا) الى (اسحق بن ابراهيم) يأمره بحملى
 فأدخلت على اسحق فقال لى : يا أحمد انها والله
 نفسك انه قد حلف ألا يقتلك بالسيف ، وأن
 يضربك ضرباً بعد ضرب وأن يلقيك فى موضع

لا ترى فيه الشمس ، أليس قد قال الله تعالى « انا جعلناه قرآناً عربياً » أفيكون مجموعاً الا وهو مخلوق .. ؟ فقلت له : قد قال الله : « فجعلهم كعصف مأكول » أفخلقهم .. ؟ فقال : اذهبوا به فأنزلت الى شاطئ دجلة ، وأحدثت الى الموضع المعروف (بباب البستان) ومعى (بفا الكبير) ورسول من قبل اسحق قال فقال (بفا) ل (محمد المحاربى) بالفارسية ، ما تريدون من هذا الرجل ؟ قال : يريدون منه أن يقول : (القرآن مخلوق) فقال : ما أعرف شيئاً من هذا الا قول لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله وقرابة أمير المؤمنين من رسول الله ، قال أبى : فلما صرنا الى الشط أخرجت من الزورق ، فجعلت على دابة والأقياد عليّ ، وما معى أحد يمسكنى ، فجعلت أكاد أخرج على وجهى ، حتى انتهى بى الى الدار فأدخلت ، ثم عرج بى الى حجرة فصبرت فى بيت منها وغلق عليّ الباب ، وأقعد عليه رجل ، وذلك فى جوف الليل وليس فى البيت سراج ، فاحتجت الى الضوء فمددت يدي أطلب شيئاً فاذا أنا باناء فيه ماء وطست فتهيأت للصلاة وقمت أصلى .

المناظرات :

لم يكن المعتصم يعرف الامام أحمد بن حنبل قبل ، ولكن أحمد بن أبي دؤاد ومن وراءه ، قد موهوا على الخليفة الجديد ، وأغروه بأحمد ، وذكروه بما عهد به اليه المأمون : ولما امتلأ رأسه ، وتشبع بفكرتهم ، رأوا أن يبلغوا بالأمر نهايته فيواجهوا أحمد بالمعتصم وجهاً لوجه ، علّ غضبة من الخليفة تريحهم من هذا المعاند المتصلب الذي لم تجد فيه شتى الوسائل الاغرائية والارهابية ... فأقنعوا الخليفة أن يعقد لأحمد مناظرات في مجلسه ، يحضرها عدد من المتكلمين . فاستدعاه المعتصم لمجلسه ، ولما أُدخل عليه أول مرة بدا الارتباك والاستغراب على وجه المعتصم ، والتفت الى ابن أبي دؤاد وقال : « أليس قد زعمتم أنه حدث السن ؟ هذا شيخ مكتهل .. » ثم بدأت المناظرات بمقدمات بين الخليفة والامام ..

وهذه المناظرات في الأيام المتتالية ، تعطينا فكرة صادقة عن حقيقة الأمر ، وموقف كل من

الخصمين ونكتفى بإيرادها من لفظ (أبى نعيم) فى
 (الحلية) حيث هو أجمع الروايات ، وقد اعتمد عليه
 أكثر من كتب عن الامام أحمد . قال : « فلما
 أصبحت جاءنى الرسول ، فأخذ بيدي ، فأدخلنى
 الدار ، وإذا المعتصم جالس ، وابن أبى دؤاد
 حاضر ، وقد جمع أصحابه والدار غاصّة بأهلها
 فلما دنوت منه سلمت فقال لى : ادنه ادنه ، فلم
 يزل يدنينى حتى قربت منه ثم قال لى : اجلس
 فجلست ، وقد أثقلتنى الأقياد ، فلما مكثت هنيهة
 قلت : تأذن لى بالكلام .؟ فقال : تكلم . قلت : الام
 دعا اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : الى
 شهادة أن لا اله الا الله . فقلت : أنا أشهد أن لا اله
 الا الله . ثم قلت له : ان جدك عبد الله بن عباس
 يحكى أن وفد عبد القيس لما قدموا على رسول الله
 صلى الله عليه وسلم أمرهم بالايمان بالله فقال :
 أتدرون ما الايمان بالله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .
 قال : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله
 وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن
 تعطوا الخمس من المفنم (وساق الحديث بسنده)

فقال لى : خذ ذلك لولا أنى وجدتكَ فى يد من كان قبلى ما تعرضت لك ، ثم التفت الى عبد الرحمن بن اسحق ، فقال له : يا عبد الرحمن ألم يصدر أمر برفع المحنة ؟ فقلت فى نفسى : الله أكبر ان من هذا لفرجاً للمسلمين ولكنه قال : ناظروه وكلموه . فقال لى عبد الرحمن : ما تقول فى القرآن ؟ قلت : ما تقول فى علم الله ؟ فسكت وجعل يكلمنى هذا وهذا فأرد على هذا وأكلم هذا ، ثم أقول : يا أمير المؤمنين أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقول به وأراه . فيقول ابن أبى دؤاد : أنت لا تقول الا ما فى كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ؟ فقلت له : تأولت تأويلاً فأنت أعلم ، وما تأولت ما يحبس عليه ويقيّد عليه . قال ابن أبى دؤاد : هو - والله - يا أمير المؤمنين ضال مضل مبتدع ، وهؤلاء قضاتك والفقهاء فسلمهم . فيقول لهم المعتصم : ما تقولون . ؟ فيقولون : يا أمير المؤمنين هو ضال مضل مبتدع . ولا زالوا يكلموننى وصوتى يعلو على أصواتهم ، فقال لى انسان منهم : قال الله « ما يأتيهم من ذكر

من ربهم محدث « أف يكون محدث الا مخلوق ؟ ،
فقلت : قال الله تعالى : « ص . والقرآن ذى الذكر »
فالذكر هو القرآن وتلك ليس فيها ألف ولا لام ..

وجعل ابن سماعة لا يفهم ما أقول ، فيقول لهم :
ما يقول ؟ فقالوا له : انه يقول كذا وكذا ، وقال
لى انسان منهم حديث (خباب) يا هناء : (تقرب الى
الله بما استطعت فانك لن تتقرب اليه بشيء هو
أحب اليه من كلامه) . قلت : نعم هكذا هو .

وجعل ابن أبى دؤاد ينظر الى ويلحظنى
متغيظاً .. وقال بعضهم : أليس قال : (الله خالق
كل شيء) قلت قد قال : (تدمر كل شيء بأمر ربها)
فدمرت الا ما أراد الله . وقال بعضهم : فما تقول
فى حديث (عمران بن حصين) ؟ : (ان الله تعالى
كتب الذكر) فقال : « ان الله خلق الذكر » فقلت :
هذا خطأ حدثناه غير واحد ان الله كتب الذكر .
وكان اذا انقطع الرجل منهم اعترض ابن أبى
دؤاد تكلم .. فلما قارب الزوال قال لهم : قوموا .

ثم احتبس عبد الرحمن بن اسحق فغلى بى

وبعبد الرحمن فجعل يقول لى : أما تعرف صالحاً
 الرشيدى كان مؤدى ، وكان فى هذا الموضع جالساً
 وأشار الى ناحية من الدار قال : تكلم ، وذكر
 القرآن فخالفتى فأمرت به فحبس ووطيء .. وقال
 لى : ما أعرفك ألم تكن تأتينا ؟ فقال له عبد الرحمن :
 يا أمير المؤمنين أعرفه منذ ثلاثين سنة يرى طاعتك
 والحج والجهاد معك ، وهو ملازم لمنزله . فجعل
 يقول : والله انه لفقير وانه لعالم ، وما يسرنى أن
 يكون مثله معى يرد على أهل الملل ، ولئن أجابنى
 الى شيء له فيه أدنى فرج لأطلقن عنه بيدي ولأطأن
 عقبه (١) ولأركبن اليه بجندى . ثم يلتفت الي
 فيقول : ويحك يا أحمد ما تقول ؟ قال فأقول :
 يا أمير المؤمنين أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة
 رسوله صلى الله عليه وسلم ، فلما طال بنا المجلس
 ضجر فقام فرددت الى الموضع الذى كنت فيه . ثم
 وجه الي برجلين هما ، صاحب الشافعى وأحمد بن
 غسان ، من أصحاب ابن أبى دؤاد ، يناظرانى

(١) يريد لاتبعنه واسير خلفه .

فيقيماني معي حتى اذا حضر الافطار وجه الينا
بمائدة عليها طعام فجعلنا يأكلان وجعلت أتعلم حتى
ترفع المائدة . وأقاما الى غد . وفي خلال ذلك يجيء
ابن أبي دؤاد فيقول لي : يا أحمد يقول لك الأمير
ما تقول ؟ فأقول له : أعطوني شيئاً من كتاب الله أو
سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أقول به .
فقال لي ابن أبي دؤاد : والله لقد كتب اسمك في
السبعة فمحوته ، ولقد ساءني أخذهم أياك وانه
— والله — ليس السيف انه ضرب بعد ضرب . ثم
يقول لي ما تقول ؟ فأرد عليه نحواً مما رددت عليه ،
ثم يأتيني رسوله فيقول : أجب الرجل الذي أنزلت
في حجرته ، فيذهب فيعود فيقول لي : يقول لك
أمير المؤمنين ما تقول ؟ فأرد عليه نحواً مما رددت
على ابن أبي دؤاد ، فلا تزال رسله تأتي أحمد بن
عمار وهو يختلف فيما بيني وبينه ، ويقول :
يقول لك أمير المؤمنين أجبنني حتى أجيب فأطلق
عنك بيدي . »

وفي اليوم الثاني دخلت عليه فقال : ناظروه

وكلموه فجعلوا يتكلمون هذا من ها ههنا وهذا من
ها ههنا فأرد على هذا وهذا ، فإذا جاءوا بشيء من
الكلام مما ليس فى كتاب الله ولا سنة رسول الله
صلى الله عليه وسلم ولا فيه خبر ولا أثر قلت :
ما أدرى ما هذا . فيقولون : يا أمير المؤمنين اذا
توجهت له الحجة علينا وثب واذا كلمناه بشيء
يقول لا أدرى ما هذا فيقول ناظروه ثم يقول :
يا أحمد انى عليك شفيق ، فقال رجل منهم : أراك
تذكر الحديث وتنتعله فقلت له : فما تقول فى قول
الله تعالى : «يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ
الأنثيين» ؟ فقال : خص الله بها المؤمنين فقلت له :
ما تقول ان كان قاتلا أو عبداً أو يهودياً أو
نصرانياً ؟ فسكت وانما احتججت عليهم بهذا لأنهم
كانوا يحتجون على بظاهر القرآن ولقوله أراك
تنتحل الحديث . وكان اذا انقطع الرجل اعترض
ابن أبى دؤاد فيقول : والله يا أمير المؤمنين لئن
أجابك لهو أحب الي من مائة ألف دينار ومائة ألف
دينار فيعدد ما شاء الله من ذلك .

ثم أمرهم بعد ذلك بالقيام وخلا بي وبعبد الرحمن ابن اسحق فيدور بيننا كلام كثير وفي خلال ذلك يقول تدعو أحمد بن أبي دؤاد فأقول : ذلك اليك فيوجه فيجيء فيتكلم ، فلما طال بنا المجلس قام ورددت الى الموضع الذى كنت فيه ، وجاءنى الرجلان اللذان كانا عندى بالأمس فجعلنا يتكلمان فدار بيننا كلام كثير ، فلما كان فى وقت الافطار جيء بالطعام على نحو ما أتى به فى أول ليلة وتعللت وجعلت رسله تأتى أحمد بن عمار ، فيمضى الى برسالة على نحو ما كان فى أول ليلة . ثم جاء ابن أبى دؤاد فقال : انه قد حلف أن يضربك ضرباً بعد ضرب ، وأن يحبسك فى موضع لا ترى فيه الشمس فقلت له : فما أصنع ؟ حتى اذا كدت أن أصبح قلت : لخلق أن يحدث فى هذا اليوم من أمرى شيء ، وقد كنت أخرجت تكفى من سراويلي فشددت بها الأقياد أحملها بها اذا توجهت اليه ، فقلت لبعض من كان معى ممن وكل بى : أريد خيطاً فجاءنى بخيط فشددت بها الأقياد وأعدت التكة

فى سراويلى ولبستها كراهية أن يحدث شيء من
أمرى فأعترى .

فلما كان اليوم الثالث ، أدخلت عليه والقوم
حضور فجعلت أدخل من دار الى دار ، وقوم معهم
السيوف وقوم معهم السياط وغير ذلك من الزي
والسلاح ، وقد حشيت الدار بالجنند ولم يكن فى
اليومين الماضيين كبير أحد من هؤلاء حتى اذا صرت
اليه قال : ناظروه وكلموه . فعادوا بمثل مناظرتهم
فدار بينى وبينهم كلام كثير حتى اذا كان فى الوقت
الذى يخلو بى فيه نحانى ثم اجتمعوا وشاورهم ثم
نحاهم ودعانى فخلا بى وبعبد الرحمن فقال لى :
ويحك يا أحمد أنا والله عليك شفيق وانى لأشفق
عليك مثل شفقتى على هرون ابنى فأجبنى . فقلت :
يا أمير المؤمنين أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما ضجر وطال
المجلس قال : عليك لعنة الله لقد كنت طمعت فيك
خذوه خلعوه ثيابه اسحبوه قال : فأخذت فسحبت
ثم خلعت ثم قال : العقابين والسياط . فجيء

بالعقابين والسياط وكان قد صار الي شعرتان من
 شعر النبي صلى الله عليه وسلم فصررتهما فى كم
 قميصى فوجه الي : ما هذا مصرور فى كم
 قميصك ؟ فقلت : شعر من شعر النبي صلى الله
 عليه وسلم وسعى بعض القوم الى القميص ليمزقه
 فى وقت ما أقمت بين العقابين فقال لهم : لا تخرقوه
 انزعوه عنه فظننت أنه درىء عن القميص الخلق
 لسبب الشعر الذى كان فيه . ثم صرت بين العقابين
 وشدت يدى وجيء بكرسى فوضع لى ، وابن أبى
 دؤاد قائم على رأسه والناس أجمعون قيام ممن
 حضر، فقال لى انسان ممن شدنى : خذ نابى الخشبتي
 بيدك وشد عليهما فلم أفهم ما قال . فتخلعت يدى
 لما شددت ولم أمسك الخشبتي . ثم قال للجلادين
 تقدموا فنظر الى السياط فقال : ائتوا بغيرها ثم
 قال : تقدموا . فقال لأحدهم : أدنه أوجع قطع الله
 يدك ، فتقدم فضرب سوطين ثم تنحى ثم قال : أدنه
 شد قطع الله يدك . فتقدم فضرب سوطين ثم تنحى
 فلم يزل يدعو واحداً بعد واحد فيضربنى سوطين
 ثم ينتحى . ثم قام حتى جاءنى وهم محدقون به .

فقال : ويحك يا أحمد تقتل نفسك ؟ ويحك أجبنى أطلق عنك يدي ، فجعل بعضهم يقول لى : تريد أن تغلب هؤلاء كلهم . وجعل اسحق بن ابراهيم يقول : ويلك الخليفة على رأسك قائم ، ثم يقول بعضهم : يا أمير المؤمنين دمه فى عنقى . ثم رجع فجلس على الكرسي ثم قال للجلاد : أدنه شد قطع الله يدك . ثم لم يزل يدعو جلاداً بعد جلاد وهو يقول : شد قطع الله يدك . . ثم قام الى الثانية فجعل يقول : يا أحمد . فجعل عبدالرحمن بن اسحق يقول لى : من صنع بنفسه من أصحابك ما صنعت ؟ هذا يحيى بن معين ، وهذا ابن خثيمة وابن أبى اسرائيل وجعل يعدد عليّ من أجاب ، وجعل هو يقول : ويحك أجبنى . وجعلت أقول نحواً مما كنت أقول لهم قال : فجلس ثم جعل يقول للجلاد : شد قطع الله يدك . فذهب عقلى فما عقلت الا وأنا فى حجرة مطلق عنى الأقياد . فقال انسان ممن حضر : انا كبيناك على وجهك وطرحنا على ظهرك بادية ودسناك . فقلت : ما شعرت بذلك ثم جاءونى بسويق فقالوا لى : اشرب وتقياً . فقلت : لا أفطر ثم جيء بى الى دار اسحق بن

ابراهيم فنودي بصلاة الظهر فصلينا الظهر فقال
ابن سماعة صليت والدم يسيل من ضربك فقلت :
قد صلى عمر رضي الله عنه وجرحه يشعب دماً
فسكت . ثم وجه الى برجل من السجن ممن يبصر
الضرب والجراحات ويعالج منها فنظر فقال : أنا
والله لقد رأيت من ضرب ألف سوط ما رأيت ضرباً
أشد من هذا ، ولقد جر عليك من خلفك ومن
قدامك . ثم أدخل ميلاً في بعض تلك الجراحات
وقال : لم ينقب . فجعل يأتى ويعالجه . وقال : ان
هنا شيئاً أريد أن أقطعه فجاء بحديدة فجعل يعلق
اللحم بها ويقطعه بسكين معه ..

هذه مناظرات تعطى القارئ فكرة كاملة عن
المحنة ، وموقف الامام أحمد وموقف ابن أبى دؤاد
أوردناها من لفظ ابن أبى نعيم فى الحلية لأنها
أجمع وهى المصدر الذى نقل عنه أكثر الكاتبيين
والمتحدثين فى هذا الأمر .. وبعد قراءتها نرى أن
النتيجة تؤيد ما ذكرناه فى مقدمة هذه المناظرات
وفى حقيقة المحنة ..

وقد توفي المعتصم وحمل ابنه الواثق فكرته واستمر في تعقب من يعارض القول بخلق القرآن . لكنه في آخر حياته اقتنع من عدم جدوى القول بخلق القرآن وكاد أن يرجع عنه لكنه استمر تعصباً لرأيه .

لطيفة :

من لطائف المجادلة في هذا الأمر الذي امتحن به العلماء والفقهاء أن الواثق يحضر مجادلة ابن أبي دؤاد وأعوانه للناس . فلما جاء دور محمد بن عبد الرحمن . وهو شيخ كبير قال له ابن أبي دؤاد : وأنت أيها الشيخ ما تقول في خلق القرآن وقد سمعت رأي أمير المؤمنين في ذلك ؟ قال : لا أدري ماذا تعني ؟ قال : هو القرآن مخلوق . قال الشيخ : « ان هذا الذي تطلب مني شيء لم يدع اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي فما تدعو الناس أنت اليه لا يخلو أن تقول علموه أو جهلوه فان قلت علموه وسكتوا عنه وسعني وإياك من السكوت ما وسع القوم ،

وان قلت جهلوه وعلمته أنت . فيا لكع بن لكع يجهل
النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون رضي
الله عنهم شيئاً وتعلمه أنت ؟ فأفحم ابن أبى دؤاد .
وسر الواصل وضعك حتى استلقى على قفاه وقال :
لقد غلبك الشيخ ، ولا وسع الله على من لم يسعه
ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم أمر بالمناقشة فأقفلت ولم يحضر مناقشة بعد
ذلك .

بريق الأمل بنهاية المحنة :

توفي الواصل وجاء المتوكل وفي أول عهده حاول
ابن أبى داؤاد ومن معه ايفار صدر الخليفة على
الامام ، والاستمرار بأخذ الناس بالقوة للقول
بخلق القرآن لكن المتوكل كان متعقلاً قد عاش كل
زمن المحنة وكرهها في قرارة نفسه ، فأحب
الانسحاب من هذه الفتنة بحكمة وحسن تدبير .
فطلب حضور الامام اليه وناقشه في بعض مسائل
أصولية وفقهية .. ثم دفع اليه ببعض المال طالباً
توزيعه بمعرفته على الفقراء فوزعه الامام بحضور

رسول الخليفة على فقراء أولاد الصحابة والتابعين ،
وخرج يخبر سيده بما حدث ثم أحب الخليفة التاكيد
من الأمر قبل البت في رأيه ، فأمر عبيد الله بن
يحيى أن يكتب الى الامام كتاباً يطلب اليه ايضاح
رأيه في القرآن فرد الامام على الكتاب موجهاً الخطاب
الى عبيد الله بن يحيى . وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أحسن الله عاقبتك
أبا الحسن في الأمور كلها ودفع عنك مكاره الدنيا
والآخرة برحمته ، قد كتبت اليك رضي الله عنك ،
بالذى سأل عنه أمير المؤمنين بأمر القرآن بما
حضرني ، واني أسأل الله تعالى أن يديم توفيق أمير
المؤمنين ، فقد كان الناس في خوض من الباطل ،
واختلاف شديد ينغمسون فيه حتى أفضت الخلافة
الى أمير المؤمنين ، فنفى الله به كل بدعة ، وانجلى
عن الناس ما كانوا فيه من الذل وضيق المجالس
فوق ذلك من المسلمين موقعاً عظيماً ودعوا الله لأمر
المؤمنين ، فأسأل الله أن يستجيب (١) في أمير المؤمنين

(١) من هنا تعلم ان الامام لم يكن في يوم من الايام ضد السلطان بل
انه يدعو له فيقول : « ما تمر ليلة الا وادعو لأمر المؤمنين » .

صالح الدعاوى ، وأن يتم ذلك كله ، وأن يزيد في نيته ويعينه على ما هو عليه . . فقد ذكر عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض فإن ذلك يوقع الشك في قلوبكم ، وذكر عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن نفراً كانوا جلوساً بباب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : ألم يقل الله كذا ؟ وقال بعضهم : ألم يقل الله كذا ؟ فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج كأنما فقيء في وجهه حب الرمان ، فقال : « أفبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض إنما ضلت الأمم قبلكم في مثل هذا انكم لستم مما ها هنا في شيء ، أنظروا الذي أمرتم به فاعملوا به ، وانظروا الذي نهيتم عنه ، فانتهوا عنه » . وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مراعاة في القرآن كفر » وروي عن أبي جهيم رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تماروا في القرآن فإن مراعاة فيه كفر » وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما :

قَدِمَ عَلَى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجل فجعل
عمر يسأل عن الناس فقال : يا أمير المؤمنين قد
قرأ القرآن منهم كذا وكذا فقال ابن عباس : فقلت :
والله ما أحب أن يتسارعوا يومهم هذا في القرآن
هذه المسارعة قال : فزجرني عمر وقال : مه .
فانطلقت الى منزلي مكتئباً حزيناً فبينما أنا كذلك اذ
أتاني رجل فقال : أجب أمير المؤمنين فخرجت فاذا
هو بالبواب ينتظرني فأخذ بيدي فخلا بي وقال :
ما الذي كرهت مما قال الرجل آنفاً ؟ فقلت : يا أمير
المؤمنين : متى يتسارعوا هذه المسارعة يحتفوا ومتى
ما يحتفوا يختصموا ومتى ما يختصموا يختلفوا
ومتى ما يختلفوا يقتتلوا قال : لله أبوك ، والله ان
كنت لأكتمها الناس حتى جئت بها .

وروي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال :
كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على
للناس بالموقف فيقول : هل من رجل يحملني الى
قومه فان قریشاً قد منعموني أن أبلغ كلام ربي ؟
وروي عن جبير بن نفير قال : قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : انكم لن ترجعوا الى الله بشيء افضل مما خرج منه يعنى (القرآن) . وروي عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : جردوا القرآن ولا تكتبوا فيه شيئاً الا كلام الله . وروي عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : هذا القرآن كلام الله فضعوه مواضعه . وقال رجل للحسن البصري : يا أبا سعيد اني اذا قرأت كتاب الله وتدبرته كدت أن آيس وينقطع رجائي قال : فقال الحسن : ان القرآن كلام الله وأعمال بني آدم الى الضعف والتقصير فاعمل وأبشر ... وقال فروة بن نوفل الأشجعي : كنت جاراً لخباب ، وهو من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فخرجت معه يوماً من المسجد وهو آخذ بيدي فقال : يا هناء تقرب الى الله بما استطعت فانك لن تقرب الى الله تعالى بشيء أحب اليه من كلامه .

وقال رجل للحكم بن عيينة : ما حمل أهل الأهواء على هذا ؟ قال : الخصومات .

وقال معاوية بن قرة وكان أبوه ممن أتى النبي

صلى الله عليه وسلم : اياكم وهذه الخصومات فانها تحبط الأعمال . وقال أبو قلابة - وكان قد أدرك غير واحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تجالسوا أصحاب الأهواء أو قال أصحاب الخصومات فاني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم ويلبسوا عليكم بعض ما تعرفون . ودخل رجلان من أصحاب الأهواء على محمد بن سيرين فقالا : يا أبا بكر نحدثك بحديث فقال : لا . فقالا : نقرأ عليك آية من كتاب الله فقال : لا . لتقومان عنى أو لأقومنه . قال : فقام الرجلان فخرجا . فقال بعض القوم : يا أبا بكر وما عليك أن تقرأ عليك آية من كتاب الله ؟ فقال : انى خشيت أن يقرأ علي آية فيحرفانها فيقر ذلك قلبي . وقال محمد : لو أنى أعلم أنى أكون مثلى الساعة لتركتهما .

وقال رجل من أهل البدع لأيوب السختياني : يا أبا بكر أسألك عن كلمة ؟ فولى ، وهو يقول ، بيده : ولا نصف كلمة . وقال طاووس بن طاوس لابن له - وتكلم رجل من أهل البدع - : يا بني أدخل

اصبعيك فى أذنيك حتى لا تسمع ما يقول . ثم قال :
 أشدد أشدد . وقال عمر بن عبد العزيز : من جعل
 دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل . وقال حذيفة
 ابن اليمان رضي الله عنه - وكان من أصحاب رسول
 الله صلى الله عليه وسلم : اتقوا الله معشر القراء
 وخذوا طريق من كان قبلكم والله لئن استبقتم لقد
 سبقتم سبقاً بعيداً ولئن تركتموه يميناً وشمالاً لقد
 ضللتهم ضلالاً بعيداً . وقد قال الله تعالى : (وان
 أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام
 الله) ، وقال : (ألا له الخلق والأمر) فأخبر بالخلق
 ثم قال : والأمر فأخبر أن الأمر غير الخلق . وقال
 تعالى : (الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه
 البيان) فأخبر تعالى أن القرآن من علمه ، وقال :
 (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع
 ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم
 بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا
 نصير) وقال : (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب
 بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما
 بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من

بعد ما جاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين) وقال :
 (وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ولئن اتبعت أهواءهم
 من بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا
 واق) ، فالقرآن من علم الله وفى هذه الآية دليل
 على أن الذى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هو
 القرآن لقوله : (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى
 جاءك من العلم) وقد روي عن غير واحد ممن مضى
 من سلفنا أنهم كانوا يقولون : القرآن كلام الله غير
 مخلوق ، وهو الذى أذهب اليه لست بصاحب كلام ،
 ولا أرى الكلام فى شيء من هذا الأمر ، الا ما كان
 فى كتاب الله ، أو فى حديث عن النبي صلى الله عليه
 وسلم ، أو عن أصحابه أو عن التابعين فأما غير
 ذلك فان الكلام فيه غير محمود .

وبعد أن قرأ المتوكل هذه الرسالة ، بعث الى
 الامام يحيى بن خاقان يقول له : « أمير المؤمنين
 يقرئك السلام ويقول كيف أنت فى نفسك وكيف
 حالك ؟ وقد أنست بقربك ويسألك أن تدعو له
 فقال : ما يأتى علىّ يوم الا وأنا أدعو له .. ثم قال

له : قد وجه معى ألف دينار لك تفرقها على أهل الحاجة » فرفض قبولها .

ووجه اليه محمد بن عبد الله بن طاهر يدعوه للزيارة فأبى وقال : قد أعفاني الخليفة من مقابلته .

عند ذلك اقتنع المتوكل تمام الاقتناع بصدق الامام واعتقاده الثابت الذى لا يتزعزع ولا يتحول . فأمر برفع المحنة عن الامام / وبالتالي عن كل الناس وألغى كل التحكمات والترتيبات التى اتخذت فى كل الجهات .. فأراح نفسه وأراح الناس من ورائه وكان فى ذلك فرج ونصر وانتصار للحق ولو طال عليه الأمد .

مدة المحنة :

بدأت هذه المحنة فى أخريات حياة المأمون عام ٢١٨ هـ وانتهت فى خلافة المتوكل عام ٢٣٤ هـ فكانت ستة عشر عاماً ، ابتلي فيها المسلمون وعلى رأسهم امام الصابرين : (أحمد بن محمد بن حنبل) ، وفرقت جماعة المسلمين ، وكره العلماء بعضهم

بعضاً ، وعمت الفتنة ، وتركت السنّة مخافة أخذ
المظهرين لها فى الفتنة . وهكذا الفتن تشمل وتعم ،
ويؤخذ بها البريء ، ويستفيد منها ذوو الأغراض
الخبیثة ، وتتمطل بسببها مصالح المسلمين ، نجانا
الله منها .

فلسفة أحمد فى تصلبه لرأيه :

لا یجهل أحد ادراك الامام أحمد للموقف ،
ومعرفته بالدين ، وفهمه لحكم الاكراه مع اطمئنان
القلب وامكان القول بالتقية . لكنه لم یصر الى ذلك
لأمر :

الأول : أنه قد ابتلي بهذا الأمر جماعة من
العلماء ، كانوا أهل فضل وعلم ومكانة بين الناس ،
فتساقطوا أمام السلطة منهم من وافق مجاملة ،
ومنهم من تكلم توریه ، ومنهم من نطق تقية : وقد
ثبت أربعة منهم ثبات الراسيات الجبال ، ولم یذلوا
ولم یهنوا ، وهم : أحمد بن حنبل ، ومحمد بن
نوح ، والقواریری ، وسجاده . فقیدوا وضربوا

وأهينوا وغلت أيديهم بالحديد ، وبعد ليلة واحدة وافقهم سجادة على رأيهم فخلوا سبيله وبعد يومين ضعفت مقاومة القواريري ، فأجابهم الى ما يطلبون فتركوه . وبقي الاثنان مقيدين محمولين الى (طرطوس) لمقابلة المأمون فمات ابن نوح في الطريق ، وبقي الامام أحمد وحده ، فهو في هذا الأمر خلاصة الخلاصة وقد تيقن أنه ان لان أو تردد فسوف ينتهى كل أمل فى الوصول الى الحق ، وسيتقبل الناس هذه الفرية فى زمنه وبعد زمنه .

الثانى : ان الامام أحمد يعلم ما أعد الله من الأجر للصابرين على الابتلاء فى سبيله ، فكان يهون عنده التعذيب والتهديد والجوع .

الثالث : ان زهده فى الحياة وتقشفه واكتفائه بما يسد رمقه قبل المحنة وحال اليسر ، مكنه من الصبر ، وتحمل البلاء والعذاب ، ولو كان مترفاً ومتلذذاً بالدنيا ومتعوداً على الناعم من العيش لما وقف أمام أربعة ملوك بقوتهم ومحاولة فرض سيطرتهم !

الرابع : ان البيئة التي كانت تحيط بالامام أحمد بقلوبها وأفئدتها - والا فقد فرقوا الناس من حوله - قلوب مؤمنة صادقة فقد زاره أول حبسه أحد المعذنين في سبيل الله فقال : ابن الامام أحمد ما تراهم صانعين بك يا والدي ؟ فقال الامام أحمد : ما هو الا العذاب يا بني . فقال هذا الرجل : أيها الامام اصبر فان العذاب يهون في سبيل الله ، وما هو الا سوط أو سوطان ثم لا تحس بالعذاب . فقويت معنوية الامام واحتقر الشياط ولم يعد يخاف منها .

ولما حُمل الامام الى الخليفة في (طرطوس) ومر في طريقه (الأنبار) عبر أبو جعفر الأنباري (الفرات) ووافاه وجلس معه قليلا فنقل حديثه (السبكي) في (طبقات الشافعية) قال : « ذكر ابن الجوزي بسنده الى أبي جعفر الأنباري ، أنه قال لما حمل الى المأمون أخبرته فعبرت الفرات ، فاذا هو جالس فسلمت عليه فقال : يا أبا جعفر تعנית . فقلت : ليس في هذا عناء وقلت له : أنت اليوم

رأس والناس يقتدون بك ، فوالله ان أجبت بخلق القرآن ليجيبن باجابتك خلق من خلق الله وان أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير . ومع هذا فان الرجل ان لم يقتلك تمت ، ولا بد من الموت فتق بالله ولا تجبهم الى شيء . قال : فجعل أبو عبد الله يبكي ويقول : ما شاء الله ما شاء الله . يعنى أن ذلك وافق ما فى نفسه وهكذا أحمد فى كل موقف .

تنبيه لا بد منه

قد يسأل المرء نفسه قبل أو بعد قراءة ما كتبنا عن المحنة وأسبابها ونتائجها فيقول : اذا ما الفائدة من إثارة الفتنة . وما الذى يجنيه المتعصبون لها وناصروها ؟ والجواب : أولا : ان أول منتفع بها هو صاحبها (ابن أبى دؤاد) ومن معه ومن يدين بمذهبه من المعتزلة ، فهم يضمنون استمراريتهم فى القيادة وبقاء الكلمة فى أيديهم فيما يخص الدين والوظائف الدينية وهى منصب مهم وخطير .

وثانياً : اذا وجد من خلف المنتفعين بالرئاسة والمناصب من يخطط لأهداف كبرى تنتهى بتفريق

المسلمين وبزعزعة عقيدتهم ، وبإثارة الشكوك
وايجاد الحيرة فهم قد استفادوا وحققوا أهدافهم .

وأمر ثالث ، لا ينبغي اغفاله ، وهو كسب
المعتصم باستقطاب الناس تحت لوائه والزامهم
بطاعته والتسليم بما يرى والطاعة لما يأمر
والاسراع لما يرغب ، وهذه سياسة يهتم بها الملوك
ويحسبون لها ألف حساب ، فاذا أقنعهم مفكر
بحصول هذه النتيجة وافقوه على اتخاذ الخطوات
والتدابير الموصلة اليها ، ولنقل ان المأمون قد شغله
مرضه عن التفكير العميق فى الخطوات والنتائج
ولكنا لن نفترض أو نتوقع أن يكون المعتصم قد
انساق اليها انسياقاً . فان الثمن باهظ والطريق
صعب ، ولو لم يكن يؤمل نتائج كبرى ومفيدة له
لما أطلق لأصحاب المحنة المبالغة والاصرار وسلوك
كل الوسائل للزام الناس جميعاً بالقول بخلق
القرآن ، وخاصة وأنهم كونوا لأنفسهم منزلة
مستقلة قوية مؤثرة تلى مرتبة الخليفة .. وكانت
الاجراءات التعسفية لا تخضع لكاتب الدولة ولا

للمستشارين ولا للمحاكم المعتادة .. وأما الواثق
فانه جاء بعد أن تمكنت هذه الفتنة فما اهتم
باستقطابها ولم يستطع مخالفتها .. مع اعتقاده
حقيقة أنه ما كان ينبغي ابتلاء الناس بها ...

ولما جاء المتوكل كانت أدمغة ونفوس المهتمين
بالفتنة قد امتلأت والناس قد ملوا ترداد القول
واللت والعجن فيه . وكان المتوكل يرقب ما حصل
وقد برم منه ، فانسحب بانتظام وسلم الله به البقية
الباقية ... وبهذا نجيب عن السؤال الذى قد يبرز
فى ذهن القراء والمتعمقين فى دراسة التاريخ والله
أعلم ...

حقيقة المشكلة :

قلنا فى أول الأمر ان أعداء الدين يندسون
وراء كل من يتوصلون به الى أهدافهم ، من أمير أو
وزير أو امرأة أو خادم ، المهم لديهم الوصول الى
تحقيق أهدافهم ، وإثارة الخلاف وتوسيع الشقة
بين المسلمين وخاصة بين الملوك والأمراء والعلماء

وليس الهدف من هذه المحنة مجرد القول بخلق القرآن فقط ، بل ايجاد قدح فى أعز شيء لدى المسلمين يتعلق به دينهم وتترتب عليه حياتهم وهو موضوع شائك عرضة للخلط فيه والشك والتوهم .. وحقيقته .. أن القول بخلق القرآن يعنى أن القرآن حادث منفصل عن الله سبحانه وتعالى كأي مخلوق من مخلوقات الله تعالى ..

وهذا يجعل القرآن قليل القيمة لا يتصف بالمميزات والقدسيات التى جعلها الله له وخصه بها . والقول بخلق القرآن ينتهى الى نفي صفة الكلام عن الله تعالى ، وانكار تكليم الله لموسى ولمحمد . والقول الحق هو قول أهل السنة والجماعة أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق . تكلم الله به حقيقة وهو كلامه الى أن تقوم الساعة : (لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .. ومن هنا فان الحديث عن محنة الامام أحمد وجلائها للناس وعرضها ومناقشتها لا يخص الامام أحمد وحده ، ولا يهم أتباعه دون سواهم

ولكنه يشمل كل المسلمين ، لأنه لو انهزم جميع المتحنين أمام دعاة هذه الفتنة لا نهد ركن عظيم من أركان الاسلام ، ولكان بوسع أي صاحب فكرة أو بدعة أن ينمقها ، ويبحث عن ركن شديد يحميها ثم يبثها ويلزم الناس بالأخذ بها ، ولو لم يحتمل تلکم المحنة أحمد لأتى الاسلام من مأمنه ، ولهدت جميع حصونه وانتهكت كل ثغوره ، ولكن الله قواه ورزقه الاحتمال ، وأكرمه بهذه الصفة : (وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم) وقد حرصت على ايراد مراحل المحنة كما هي بياناً لها . وعرضاً لتاريخ جهاد الامام وصبره وغزارة علمه وقوة تمسكه وتحرزه من الوقوع بما يفهم منه معارضة الدين .

ثم هي بعد ذات طابع علمي بحث فيه فائدة للقاريء وتصحيح لأمر لا يجهله جميع المسلمين ولكن حقيقته لا يدركها سوى القليل منهم .

والله حسبنا ونعم الوكيل ...

أحمد بن أبي دؤاد الأيادي الجهمي :

ان من يتحدث أو يؤرخ للامام أحمد بن حنبل لا بد أن يذكر (ابن أبي دؤاد) ، لأنه مخترع الفتنة وحاميها والداعى لها .

وهو رجل عالم مفكر لا شك فى ذلك ، لكن رغبته فى الجاه والمنصب ، والقرب من الملوك ، والمصول على صلتهم وثقتهم ، جعلته يحاول الوصول الى ذلك بأي طريق - ولو كان على حساب الدين - أو الاضرار بشخص آخر ، وهذا ما حدث فى موضوعنا هذا .

فان ابن أبي دؤاد قد صعد على أشلاء المعذبين الى أعلى مناصب مناسبة له فى الدولة ، حتى استطاع أن يؤثر على الملوك ، ويقنعهم بحمل هذه الفكرة والزام الناس بها ..

وتذكر عنه كتب التاريخ أنه متعصب عنيد حاقد عديم الرحمة والرافة بالمسلمين . حيث يتفوه أثناء المحاكمة بكلمات بشعة ويطلق عبارات قد تتسبب

فى قتل خصمه ، وافترضه أن كل من لم يقل بخلق القرآن فهو ضد الدولة والخليفة شخصياً وعدو له .. وهذا مبدأ خطير يمس قاعدة الحكم وأساسه . والا فما الذى يجعل شخصاً لا يعرف الخليفة ، ولم يقابله مرة ، وليس بينه وبينه تعامل ، ولم يمنعه شيئاً أعطاه لغيره ، ما الذى يجعله عدواً له شخصياً ؟ ان هذا ما لا تقبله العقول والفطر السليمة .

وهب أن شخصاً أخطأ خطأ مقصوداً ، فان فعله ينحصر فيما أخطأ فيه ، وعقوبته تتحدد تبعاً لذلك ، ولا تنسحب الى سواه ، مما هو بعيد كل البعد عن التصور والوقوع

وهذا ما لم يرضه ولم ينهجه ابن أبى دؤاد ، الذى أصبح فى يوم من الأيام قاضياً وحاكماً فى آن واحد ، بحيث يستخدم سلطته القضائية وينفذها بقوة السلطان .

ولا يفوتنا أن ننبه الى أنه برغم ما حصل من اساءة ابن أبى دؤاد الى الامام أحمد ، فانه - رحمه

الله - لم يقل شيئاً بسوء عن ابن أبي دؤاد ، وما دعا عليه مرة واحدة .. ولم يصفه شخصياً بأى وصف شائن .. بعكس ابن أبي دؤاد الذى لم يترك مجالاً للحط من منزلة الامام الا اتخذه سراً وعلانية !

نهاية الظالم :

كانت نهاية ابن أبي دؤاد الخزي والعار والمرض . فقد أنزل من منصبه وأصابه الفالج فى آخر حياته . وأبفضه الناس جميعاً . ويقال ان (عبد العزيز بن يحيى المكي) ، دخل عليه فى مرضه فقال له : انى لم آتكَ عائداً ولكنى جئت لأحمد الله تعالى على أن سجنك فى جلدك ..

ويصف نهايته (ابن شراة البصري) الشاعر فيقول :

أفلت نجـومك يا ابن أبي دؤاد
وبدت نحوسك فى جميع ايا
فرحت بمصرعك البرية كلها
من كان منها موقناً بمعاد

لم يبق منك سوى خيال لامع
فوق الفراش ممهداً بوساد

وخبت لدى الخلفاء نارك بعد ما
قد كنت تقدحها بكل زناد

لم تخش من رب السماء عقوبة
فسننت كل ضلالة وفساد

كم من كريمة معشر أرملتها
ومحدث أوثقت بالأقياد

كم من مساجد قد منعت قضاتها
من أن يعدل شاهداً برشاد

لا زال فالجك الذي بك دائماً
ومحقت قبل الموت بالأولاد

آثار المحنة وفوائدها :

ان ما حدث خلال سنوات ستة عشرة من المحنة
والابتلاء يجعل العاقل يفكر فيما بعد ذلك ، وماذا
يستفيد المسلمون منها ! ولو أردنا استخلاص كل

الفوائد لاحتجنا لمجد ضخم ، ولكننا نجتزئ هنا
أموراً رئيسية منها :

أولاً : وجود فئة من الناس فى كل عصر تميل
الى الشر وتقصده لأنها مجبولة عليه ، فهى لا يهدأ
لها بال اذا لم تشغل نفسها فى الشر وفى التشفى
بالناس وايدائهم.. وهذه الجبلة تتخذ طابعاً يناسب
كل بيئة . تبدأ بالنميمة والغيبة والحسد .. ثم
تتحول عند ممارسة شهوتها الى النفاق ثم تنتهى
الى التشفى وتعذيب أهل الحق والخير على المستوى
الفردى أو الجماعى حتى ان بعض أهل هذه الطباع
يؤذون أنفسهم وأهليهم والملتصقين بهم ..

ثانياً : استخدام الوسائل الشرعية والعرفية
المقبولة لدى الناس فى الوصول الى الأهداف
الشريرة .. ومن هنا وجب على قادة المسلمين التعمق
فى فهم الأمور والفوص الى حقائقها حتى لا يخدعوا
وتكون الضحية مصلحة المسلمين ودينهم ...

ثالثاً : انتصار الحق مهما خيمت أو ظللت سحابة
الباطل فان الحق أبقى وأبلج .. وقد وعد الله بنصر

الحق وأهله .. ولو كثر أهل الشر وطالت شوكتهم
قدراً من الزمن .. وما انتصار الامام أحمد - رحمه
الله - سوى نموذج لهذه الحقيقة . ولكن على المسلمين
أن يفهموها . وأن يثقوا من وعد ربهم ويتمسكوا
بدينهم والعاقبة لهم ...

رابعاً : أهمية العلماء المحققين النزيهين وعظم
مسئوليتهم أمام الله تعالى ثم أمام الأمة . وان
المسئولية تقع على أعناقهم لحماية دين الله ونشره في
المعمورة والحفاظ على مصالح الأمة .. وإثبات أن
الحكام يرجعون الى رأيهم ويأخذون بمشورتهم وأن
الناس يتبعونهم ولا يخرجون عن إرشادهم ، ولكن
بشرط أن تكون أخلاقهم أخلاق العلماء ، وأن تكون
سيرتهم سيرة الرجال الصالحين . أما ان يتسابقوا
على المناصب ، أو يسيل لعابهم اذا رأوا صفرة
الدينار ، أو ينساقوا مع لين الحياة وبريقها وترفها ،
فهذا هو ما يذلهم ويمنع الحكام من طاعتهم ، وقبول
مشورتهم ، ويبعد عنهم العامة ...

ولم يكن التاريخ ، ولم يفكر علماء المسلمين

الأول ، بأن رجلا ينسب الى العلم يعمل أعمال
العامة ، أو يمتهن حرف السفلة . أو يسابق
الطماعين الى مطامعهم .. ولن ننساق فى هذا
هذا الموضوع المهم ، بل نكتفى بالحقيقة التى يعرفها
العلماء والتى سجلها العالم القاضى (أبو الحسن
علي بن عبد العزيز المرحانى) :

يقولون لى فيك انقباض وانما
رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من دانا همو هان عندهم
ومن أكرمه عزة النفس أكرما
وما كل برق لاح لى يستفزنى
ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
وانى اذا ما فاتنى الأمر لم أبت
أقلب كفى اثره متندما
ولم اقض حق العلم ان كان كلما
بدا طمع صيرته لى سلما

إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى
ولكن نفس الحر تحمل الظما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي
لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أشقى به غرساً وأجنيه ذلة
إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا
محياه بالأطماع حتى تجهما

حقاً ان هذا سر باق في كل زمان ، وفي زمننا
هذا انتسب الى العلم والعلماء أناس لا يعرفون
العلم الحقيقي ، ولا ما يوصل الى العلم من المعاني
والسلوك والمادة العلمية ، فمنهم من لا يعرف النحو
والتصريف ويقول انه عالم ، ومنهم من لم يقرأ مثل
هذه المناظرات والامتحانات ، وحتى لم يقرأ هذه
التحفة الشعرية وان قرأها لم يدر معناها . فكيف
يكون مثل هذا سداً منيعاً أمام الفتن والبدع ؟

وكيف يكون قدوة لغيره ومثلاً يحتذى ؟ ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

خامساً : ان البلاء والمحن تقع على عاتق سراة الناس من الملوك والعلماء وأهل الحل والعقد فى الأمة ، لأنهم هم الهدف ، وهم خلاصة الأمة ، اليهم يرجع الأمر ، وبهم يقضى ، وعندهم ينتهى . ولا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم . وهذا يعنى أن نحرص على انتقاء القادة ، بحيث يكونون أهلاً لتحمل البلاء عن بقية الأمة ، وأمناء بحيث تطمئن الأمة لرأيهم وتتبعهم فيما يدبرون ويدعون اليه . . . وعلينا أن نحذر من الذين يصطادون فى الماء العكر وينتحلون لكل زمان لبوسه ، حتى يحتلوا المنزلة العالية لدى الحكام والعلماء ، ليصلوا الى أهدافهم ومطامعهم الخاصة . ولا تهمهم بعد ذلك مصالح المسلمين .

وفاته ومرآته

وفاة الامام :

ضعف الامام فى آخر حياته ، واحتبس فى بيته . وفى آخر أيامه أصيب بالحمى التى أثخنه ، وعلم الناس بذلك فتقاطروا لزيارته حتى تكاثروا فاضطر أولاده وأصحابه لوضع حراسة على الدرب والدار لمنع الناس . وفى مرضه أمر ابنه أن يفتح كيس نقوده فلم يجد سوى درهم واحد ، أمره أن يزيده من أجر داره ، وأن يتصدق بتمر كفارة يمين حنث فيها . وقد استمر يؤدى الصلاة حتى آخر لحظة من حياته . وأوصى بأن توضع الشعرات التى وصلت اليه من شعرات رسول الله صلى الله عليه وسلم على فمه وعينييه .. وقد توفى رحمه الله - يوم الجمعة الثانى عشر من شهر ربيع الأول سنة ٢٤١ عن سبع وسبعين سنة .. قضاها فى العلم والعبادة والجهاد .

ولما قربت وفاته أمر ابنه أن يحضر وصيته التي سبق أن كتبها ويقرأها عليه وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أوصى به أحمد بن حنبل ، أوصى بأنه يشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .. وأوصى من أطاعه من أهله وقرابته أن يعبدوا الله في العابدین ، ويحمدوه في الحامدين . وأن ينصحوا الجماعة المسلمين . وأوصى أنى قد رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً . وأوصى أن (لعبد الله بن محمد المعروف ببوران) عليّ نحواً من خمسين ديناراً ، وهو مصدق فيما يقول ، فيقضى ماله عليّ من غلة الدار ان شاء الله - فاذا استوفى أعطى ولد صالح وعبد الله ابنا أحمد بن حنبل كل ذكر واثني عشرة دراهم بعد وفاء مال أبى محمد . شهد أبو يوسف وصالح وعبد الله أبناء أحمد بن محمد بن حنبل . »

ولما توفي أطبقت بغداد كلها لشهود جنازته التي جهزت بعد الظهر بما فيهم الحاكم والعلماء وسلالة الهاشميين والصحابة والتابعين .. ف قيل ان من شهد الصلاة وتبع الجنازة يقدر بألفى ألف وخمسمائة ألف .. وقيل حضر مع ذلك ستون ألف امرأة وأسلم يوم وفاته عشرون ألفاً من ديانات مختلفة . وفتحت البيوت كلها للوضوء والانتظار ودفن في مقبرة (باب حرب ببغداد) وما زال قبره معروفاً الى أوائل القرن التاسع الهجري . فرحمه الله ورضي عنه وجزاه عن المسلمين خير الجزاء .

رثاء الامام :

نذكر أننا قلنا فيما سبق أنه أُلْفَت الكتب عن الامام ، وجمع أناس ما قيل عنه بعد وفاته ، وما رؤى له من الرؤى ، ولكننا أعرضنا عن ذلك ، ونكتفى الآن بقصيدة واحدة قالها جعفر السراج :

سقى الله قبراً حل فيه ابن حنبل
من الغيث وسمياً على اثره ولى

على أن دمعى فيه روى عظامه
 إذا فاض ما لم يبيل منه وما بلى
 فله رب الناس مذهب أحمد
 فان عليه ما حيت معولى
 دعوه الى خلق القرآن كما دعوا
 سواء ، فلم يتبع ولم يتأول
 ولا رده ضرب الشياط وسجنه
 عن السنّة الغراء والمذهب الجلى
 ولما يزدهم - والسياط تنوشه
 فشلت يمين الضارب المتقتل
 على قوله : القرآن - وليشهد الورى -
 كلامك يا رب الورى كيفما تلى
 فمن مبلغ أصحابه اننى به
 أفاخر أهل العلم فى كل محفل
 وألقى به الزهاد فى كل مطلق
 من الخوف دنياه طلاق التبتل

مناقبـه ان لم تكن عالماً بها
فكشف طروس القوم عنهن واسأل

لقد عاش فى الدنيا حميداً موقفاً
وصار الى الأخرى الى خير منزل

وانى لراج أن ينور الله قلب من
إذا سألوا عن أصله قال : حنبلى

الأئمة الأربعة ومذاهبهم :

لم يكن هدفنا فى هذا البحث الحديث عن أحد
من الأئمة سوى الامام أحمد ، ولكن لا بد لنا هنا من
اثبات أمر مهم ننتفع به ، وهو رأى الأئمة بعضهم
ببعض ويتمثل ذلك فيما بين الامام (محمد بن
ادريس الشافعى) والامام (أحمد بن محمد بن
حنبل) لتعاصرهما زمناً . فان أحمد قد أخذ عن
الشافعى ، وتلمذ عليه فى (بغداد) وفى (مكة
المكرمة) ، وهذا لم يمنع الشافعى أن يأخذ عن
أحمد .. ولندع الامامين يحدثانا عن هذا الموقف
الحساس بالنسبة لبعض أتباع بعض الأئمة :

يقول الامام أحمد : « ما من أحد مس بيده
محبرة وقلماً الا وللشافعي فى عنقه منة .. » . وقد
بقى ثلاثين سنة يدعو للشافعي كل ليلة ويستغفر
له حتى ان أحد ولده قال له : أي رجل هذا الشافعي
حتى تدعو له هذا الدعاء ؟ فقال الامام أحمد : « ان
الشافعي كان كالشمس للدينيا وكالعافية للناس » .

وبالمقابل كان الامام الشافعي يقول : « يا أبا
عبد الله اذا صح عندكم الحديث عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم فأخبرونا به حتى نرجع اليه » وقال
لمرة : « أنت أعلم بالأخبار الصحاح منا ، فاذا
كان خبر صحيح فأخبرنى حتى أذهب اليه كوفياً كان
أو بصرياً أو شامياً .. » وقال عبد الله بن أحمد :
جميع ما حدث به الشافعي فقال حدثنى الثقة أو
أخبرنى الثقة فهو أبى - رحمه الله - ...

ومن هنا فلعل الاخوة المتعصبين للمذاهب فى
الأمر الفرعية الذين يختلفون حتى يبلغ بهم
الاختلاف الى التشاحن والتفرق يدركون هذه
الحقيقة عن الامامين - وكان مثلهما تماماً عن

الامامين (مالك وأبى حنيفة) ، حتى اذا عرف
ذلك أتباعهم خففوا من غلوائهم ، وعلموا محبة
بعضهم بعضاً وعدم اختلافهم فى الأصول مطلقاً .
وانهم جميعاً كانوا يقولون : اذا وافق قولى قول
رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذوه واذا عارضه
فاضربوا به عرض الحائط . وانهم لم يكونوا
ليعلموا أن الناس سيقلدونهم تقليداً يفرق بين
المسلمين . ويبعد بعضهم عن بعض الى درجة أن
لا يقبل المالكي من الحنفي ، والشافعي من الحنبلي ،
ولا يصلى بعضهم خلف بعض .. فلو علموا ذلك
لأنكروه أشد الزكران ، ولبرثوا منه .

وبعد ذلك على المسلمين أن يهتموا بالعقيدة
وبمشكلاتهم الكبرى ، بدل أن يختلفوا على المفردات ،
أو فرعيات القياس ، أو وضع اليدى فى الصلاة
تحت السرة ، أو على الجانب الأيسر ، أو فى الوسط
فيما بين السرة والصدر . وألا ينسبوا هذا التعصب
الى الأئمة رحمهم الله ..

المذهب الحنبلي

مذهب أحمد :

لم يكن أحمد يريد أن يكون له مذهب خاص ينسب اليه ولا يختص به عن سواه ، وعلامة ذلك أنه لم يسجل سوى المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ينهى أن يكتب عنه شيء ماعدا رسائل كتبها اجابة لطلب ملح .. ولكنه حينما نبغ في العلم ، وقصده الناس للأخذ عنه والارتواء من معين علمه ، سجل تلاميذه ما أخذوه عنه ، ثم سجلوا مسائله وحققوا فيها ونقحوها فجمعوها ودونوها . والكتب المعروفة الآن هي من تأليف الجيل التالي لأصحاب أحمد ، الذين أخذوا عن أصحابه مسائله ..

وقد عقد صاحب (المدخل الى مذهب الامام أحمد بن حنبل) عقداً خاصاً أسهب فيه عن بيان السبب الذي اختار كثير من كبار العلماء مذهب

الامام أحمد على مذهب غيره ننقل بعضه قال :
« هذا العقد له مدخل عظيم لمن يريد التمهيد
بمذهب أحمد وما ذلك الا لأن الداخل على بصيرة
فى شيء أعقل من الداخل فيه على غير بصيرة وأبعد
عن التعصب والتقليد المحض ، وكل انسان يختار
لمطعمه وملبسه وحوائجه الضرورية ، فلأن يختار
ويحتاط لدينه أولى ، ولما كان المقلد لا رأى له ولا
ترجيح ، وانما نصيبه من العلم أن يقول قالوا فقلنا
أثبتنا له هذا العقد ليعتد به ، ونصبنا له هذا
السلم ، أملا بأنه ان ترك التعصب الذميم والجهل
المركب ، ارتقى قليلا الى درجات أوائل العلم ،
ولاح له لمعان من نور الهدى ، فيجره اختيار المذهب
الى اختيار بعض الفروع بالدليل والبرهان فيكون
حينئذ من المفلحين ويتزحزح عن نار الغفلة ،
والتقليد الأعمى المذموم على لسان كل عاقل له
قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . واليك بيان
ما نوهنا به وأشرنا اليه :

قال الامام الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن

الجوزى أحد المجتهدين فى مذهب أحمد ، فى كتاب
 المناقب فى الباب السابع والتسعين منه : « اعلم
 وفقك الله انه مما يتبين الصواب فى الأمور المشتبهة
 لمن أعرض عن الهوى والتفت عن العصبية ، وقصد
 الحق بطريقة ولم ينظر فى أسماء الرجال ولا فى
 صيتهم فذلك الذى يتجلى له غامض المشتبه . فاما
 من مال به الهوى ففسير تقويمه . واعلم اننا نظرنا
 فى أدلة الشرع وأصول الفقه ، وسبرنا أحوال
 الأعلام المجتهدين فرأينا هذا الرجل (الامام أحمد)
 أوفرهم حظاً من تلك العلوم ، فانه كان من
 الحافظين لكتاب الله عز وجل ، وقرأه على أساطين
 أهل زمانه ، وكان لا يميل شيئاً فى القرآن ويروى
 قوله صلى الله عليه وسلم : (أُنزل القرآن فخمأ
 ففخموه) وكان لا يدغم شيئاً فى القرآن الا (اتخذتم)
 ويمد مدأ متوسطاً . وكان رضى الله عنه من المصنفين
 فى فنون القرآن ؛ من التفسير والناسخ والمنسوخ
 والمقدم والمؤخر فى القرآن وجوابات القرآن ،
 والمسند وهو ثلاثون ألف حديث . وكان يقول لابنه
 عبد الله : احتفظ بهذا المسند فانه سيكون للناس

اماماً .. والتاريخ ، وحديث شعبه ، والمناسك الكبير والصغير، وأشياء أخرى . وقال عبد الله : قرأ أبى علينا المسند وما سمعه منه غيرنا . وقال لنا : هذا كتاب قد جمعته وانتقيته من أكثر من سبعمائة ألف حديث فما اختلف المسلمون فيه من حديث رسول الله فارجعوا اليه ، فان وجدتموه فيه والا فليس بحجة .. قال ابن الجوزي : وأما النقل فقد سلم الكل له بانفراده فيه ؛ بما لم ينفرد به سواه من الأئمة من كثرة محفوضه منه ، ومعرفة صحيحه من سقيمه ، وفنون علومه . وقد ثبت أنه ليس في الأئمة الأعلام قبله من له حظ في الحديث كحظ مالك ومن أراد مقام معرفة أحمد في ذلك من مقام مالك فلينظر فرق ما بين المسند والموطأ . وقال ابنه عبد الله : سمعت أبا زرعة يقول : كان أحمد ابن حنبل يحفظ ألف ألف حديث . فقيل له : وما يدريك ؟ قال : ذاكرته فأخذت عليه الأبواب . وقيل لأبى زرعة : من رأيت من المشايخ المحدثين أحفظ ؟ فقال : أحمد بن حنبل حزمته كتبه في اليوم الذي مات فيه ، فبلغت اثني عشر حملاً .

وعزل ما كان على ظهر كتاب منها حديث فلان وفي
بطونها حدثنا فلان وكل ذلك كان يحفظه أحمد عن
ظهر قلب . قال ابن الجوزي : وكان أحمد يذكر
الجرح والتعديل من حفظه اذا سئل عنه ، كما يقرأ
الفاحة . ومن نظر في كتاب العلل لأبي بكر الحلال
عرف ذلك ، ولم يكن ذلك لأحد من الأئمة . وكذلك
انفراده في علم النقل بفتاوى الصحابة وقضاياهم
 واجتماعهم واختلافهم لا تنازع في ذلك . وأما علم
العربية فقد قال أحمد : كتبت من العربية أكثر مما
كتب أبو عمرو الشيباني . وأما القياس فله من
الاستنباط ما يطول شرحه . قال أبو القاسم
ابن الحنبلي : أكثر الناس يظنون أن أحمد إنما
كان أكثر ذكره لموضع المحنة ، وليس هو كذلك
كان أحمد بن حنبل اذا سئل عن المسألة كان علم
الدنيا بين عينيه . . قال الحلال : كان أحمد قد
كُتِبَ كُتِبَ الرأي وحفظها ثم لم يلتفت إليها ،
وكان اذا تكلم في الفقه تكلم كلام رجل قد انتقد
العلوم فتكلم عن معرفة .

قال ابن الجوزي : وقد كان الشافعي عالماً بفنون العلوم الا أنه سلم لأحمد علم النقل الذي عليه مدار الفقه .. قال ابن الجوزي بعد ان أورد كثيراً من هذا الباب : « هذا قدر الانتصار لاختيارنا لمذهب أحمد ورحمة الله على الكل ، وللناس فيما يعشقون مذاهب .. اهـ » .

ثم ذكر مؤلف المدخل أئمة التابعين لأحمد وذكر فضلهم ، ثم عقد عقداً ثالثاً عنوانه بقوله : (العقد الثالث في ذكر أصول مذهبه في استنباط الفروع وبيان طريقته في ذلك) أما طريقة الامام في الأصول الفقهية فقد كانت طريقة الصحابة والتابعين لهم باحسان لا يتعدى طريقتهم ولا يتجاوزها الى غيرها ، كما هي عادته في مسائله في التوحيد والفتيا في الفقه ، وفي جميع حركاته وسكناته ، وكما تقدم لك آنفاً ما كان عليه من الاعتقاد ، وكما سنبينه في مسالكة من الاجتهاد . وحيث علمت ذلك فاعلم انه صرح المجتهدون من أهل مذهبه التابعين له في الأصول ، أن فتاواه

رضي الله عنه مبنية على خمسة أصول (بيئنها بالتفصيل) فنذكرها جملة : الأول : اذا وجد النص أفتى بموجبه ولم يلتفت الى ما خالفه . الثاني : من أصول فتوى الامام أحمد ما أفتى به الصحابة الثالث : اذا اختلف الصحابة تخير من أقوالهم ما كان أقربها الى الكتاب والسنة . الرابع : الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف اذا لم يكن فى الباب شيء يدفعه ، وهو الذى رجحه على القياس . والحديث الضعيف عنده قسيم الصحيح ، وليس المراد به الباطل أو المنكر ولا ما فى روايته منهم . الخامس : القياس كان أحمد يستعمله للضرورة ففى كتاب الخلال عن أحمد قال : سألت الشافعي عن القياس فقال : انما يصار اليه عند الضرورة

رأي الامام :

لم يكن للامام أحمد رأي يخالف رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته والتابعين لهم باحسان .. فقد كان يحفظ أحاديث رسول الله وفعله وتقاريره . ويعلم فتاوى الصحابة والتابعين ، فكان

يحرص عليها كثيراً . وفيما لم يكن نصاً كان رأيه
رأي جمهور المسلمين ... وقد نقلنا رأيه بالتفصيل
في القرآن .. وهنا نورد شيئاً من كلامه ورأيه
السياسي المستمد من السنّة قال : « والسمع
والطاعة للأئمة ، وأمير المؤمنين ؛ البر والفاجر ،
ومن ولي الخلافة فاجتمع الناس عليه ورضوا به ،
ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسمى أمير
المؤمنين ، والغزو ماض مع الأمراء الى يوم القيامة
البر والفاجر ، وقسمة الفىء ، واقامة الحدود الى
الأئمة ماض ليس لأحد أن يطعن عليهم ، ولا ينازعهم ،
ودفع الصدقات اليهم جائز نافذ ، من دفعها اليهم
أجزأت عنه ، برأ كان أو فاجراً ، وصلاة الجمعة
خلفه ، وخلف كل من ولي جائزة امامته ، ومن
أعادها فهو مبتدع تارك للآثار ، مخالف للسنّة
ليس له من فضل الجمعة شيء ، اذا لم ير الصلاة
خلف الأئمة من كانوا برهم وفاجرهم فالسنّة أن
تصلى معهم ركعتين ، وتدين بأنها تامة لا يكن في
صدرك شك .. ومن خرج على امام من أئمة المسلمين ،
وقد كان الناس قد اجتمعوا عليه وأقروا له بالخلافة ،

بأي وجه كان بالرضا أو بالغلبة فقد شق هذا
الخارج عصا المسلمين ، وخالف الآثار عن رسول الله
فان مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية »

هل يجود الزمن بمثل الامام أحمد ؟ ..

ليس على الله بمستحيل أن يوجد في الأمة
الاسلامية مثل الامام أحمد في علمه وزهده وورعه
.. ونحن متفائلون - ولن نقف عند صفات أهل
زماننا حتى لا يداخلنا اليأس ، ونحن نؤمن أن
أفذاذ الرجال نادرون ، وانهم علامات فارقة في
جبين الدنيا .. فاذا نظرنا الى توفر الوسائل
لادراك العلم وتهيئته لطالبيه أملنا خيراً - وقلنا لم
يبق سوى وجود الورع والانقطاع للعلم وهذا قد
يهبه الله لبعض عباده ..

واذا نظرنا الى بعض من يشار اليه بالبنان من
المنتسبين الى العلم ، وجدنا أنه لم يقرأ حتى تاريخ
الامام أحمد .. أو شيئاً عن أحد الأئمة الثلاثة ..
وانما أخذ هذا الانتساب بالأمر الهين الذي لا يكلفه
جهداً ولا وقتاً دب اليأس الى نفوسنا .. وخاصة وقد

استغرب الناس فصاروا يأخذون التزكية من أعدائهم ، وأولئك يسهلون لهم مهمة هذه التزكية ، فيقبلون منهم جزءاً من مليون جزء من المادة ، يأخذونه على علاته ، ثم يعطونهم ما يمكنهم من الانتساب الى العلم وهم منه خلو وبراء ..

وحدث ولا حرج عن رجل يدعى شيئاً ومعه مستند وهو لا يعرفه ولا يتقنه .. ومن يعيش رجب ير عجباً ..

ان على المسلمين أن يدركوا هذا التحول في تاريخهم ، وأن يعتمدوا على الله وحده ثم على أنفسهم في رسم قواعد ثقافتهم ، وتقويم مقوماتهم ولديهم كل العناصر والوسائل لذلك ...

ولم أر في عيوب الناس شراً
كنقص القادرين على التمام

حنبلي وحنابلة :

تدل هذه الكلمة من أول وهلة - على النسبة الى المذهب الحنبلي ، أو الى أتباع أحمد بن حنبل -

لكن طائفة من الناس فهموا منها مدلولاً آخر بعيداً
عن معناها ، وهو صفة التشدد وعدم التسامح !..
ولم أجد من أورد تعليلاً كافياً مما اطلعت عليه
من كتابات عن أحمد سواء منها ما كتبه العرب أو
كتبه المستشرقون !..

ويبدو أن هذا المدلول جاء أول مرة من موقف
الامام أحمد في أمر المحنة والقول بخلق القرآن .
ثم توسع به من لا يعرف مذهب الحنابلة فأطلقه على
الشدة والقوة والتعصب للرأي ... والا فان جميع
من قرأ تاريخ الامام أحمد يدرك أنه شخصية
بسيطة متسامحة يقنعها من الحياة اليسير وتسعى
جاهدة لجلب الخير للمسلمين ، وتيسير فهم دينهم
عليهم .

وشاهد ذلك أن كل من كتب عن حياة أحمد
الخاصة ، أو اطلع على مسائله أدرك تسامحه ولينه ،
وأيضاً فانه في حياته لم يسمح بتدوين آرائه ،
ولم يسم له مذهباً ، بل انه كان ينهى عن كتابة
شيء سوى ما كان من كتابة المسند واذا كان حنبلي

ما فى عصر ما اتخذ الشدة له طابعاً وعنواناً فلا يلام أحمد ولا أتباعه فى ذلك ، وليرجع من شاء المزيد من الأدلة الى ما دُوِّن من كتب الحنابلة ليجد الدليل يتبع كل مسألة ، ويجد اليسر والتوسعة على المسلمين فى آراء أئمتهم .

واذا كان المقصود بهذه النسبة على هذا الفهم ، شدة تمسك الحنابلة بالدين ومحاولة أدائه كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلك منقبة يفخر بها الحنابلة ، ويزدادون بها شرفاً وفضلاً .

ولكن الحقيقة أن الذين ينسبون الحنابلة الى الشدة أكثرهم لا يدرك حقيقة مذهبهم ، ولا مذاهب الأئمة الثلاثة .

ونجتزئ هنا الموضوع بالاكتفاء بما كتبه الشيخ (محمد أبو زهرة) وبما نقله فى كتابه (ابن حنبل) فقد عقد فصلاً عنوانه ب (دراسة لبعض فقه أحمد ..) استعرض فيه بعض الآراء الفقهية التى تميز بها المذهب الحنبلي عن غيره ، مثل - حرية التعاقد - والشروط المقترنة

بالعقود - وفي نهاية الفصل قال : « وهكذا نرى ذلك الامام الذى جعل آثار السلف أستاذه فتخرج عليها ، واهتدى بهديها ، ولم يخرج عن سننها ، ولم يسلك غير سبيلها ، واقتبست روحه من نورها ، انتهى فى العقود وكثير من معاملات الناس الى التوسعة بدل التضيق والى الاباحة دون المنع . وبذلك قام الدليل على أن الناس الذين يزعمون أن الرجوع الى مسالك السلف الصالح فيها تضيق على الناس لم يعرفوا حقيقة هذه الآثار ، وكيف سلك الصحابة ، وكيف عاجلوا المشاكل التى عرضت بروح الدين الذى جاء رحمة للناس ، ولم يجيء لاعتقدهم والتضييق عليهم . وهذه عقود تقوم عليها الأسواق العالمية فى العقود قد كان فى فقه أحمد متسع لها ، وقد تبين أنه اهتدى فى هذا بهدى السلف رضي الله عنهم » .

ثم قال فى أول الفصل الذى يليه : « شرحنا فى الفصل السابق كيف كان المذهب الحنبلي فى العقود والشروط أوسع المذاهب الاسلامية رحاباً ،

وأخصبها جناباً . والأصول التي تأدت بها الى ذلك .. »

ثم قال : « ولقد جاء الحنابلة بعد هؤلاء وأولئك ، فقررُوا أن باب الاجتهاد بكل طرائقه لا يغلق ، وان كانت القوى مختلفة ، والمدارك متباينة ، فليس لأحد أن يغلق بابه ، وان كان الناس جميعاً ليسوا له أهلاً بل كل ومداركه وكل ما تيسر له . وقد يخلو بعض الأقاليم أو بعض المعاصرين من المجتهدين ، وليس ذلك لأن الاجتهاد محرم وبابه مقفل ، بل لأن المدارك لم تتجه والهمم تقاصرت ، وان كان السبب ميسراً والباب مفتوحاً ... »

وان قضية فتح باب الاجتهاد فى المذهب الحنبلي قضية تضافرت عليها أقوال المتأخرين وأقوال المتقدمين حتى لقد قال (ابن عقيل) من متقدمى الفقهاء فى ذلك المذهب الجليل انه لا يعرف خلافاً فيه بين المتقدمين ، وان أقر المتأخرون أنه قد يوجد عصر يخلو من المجتهد المطلق - (فابن حمدان)

الحنبلي يقول : « ومنذ زمن طويل عدم المجتهد المطلق ، ومع أنه الآن أيسر منه في الزمن الأول » .

وإذا كان باب الاجتهاد مفتوحاً ، وإذا كان العلية من أصحاب أحمد وأتباعه ، قد استنكروا أن يخلو زمن من المجتهدين المطلعين المستقلين ، فإن ذلك المذهب يكون ظلاً ظليلاً لأحرار الفكر من الفقهاء ولذلك كثر فيه العلماء الفطاحل في كل العصور ..

وبعض العلماء كان إذا اطلع على ما في ذلك المذهب الأثري من خصوبة وحرية في البحث ورجوع الى الاثر ، يطرح مذهبه الذي كان يعتنقه ويلجأ الى ذلك المذهب الواسع الرحاب الخصيب الجنب .

فاذا قل عدد معتنقيه من العامة وأشباههم فقد كثر عدد معتنقيه من المجتهدين وأمثالهم ، ومن يتخيرون من المذاهب ولا يتقيدون . وحسبه أن يكون فيه الامامان (ابن تيمية وابن القيم) ليكونا عوضاً عن الكثرة والاعداد ولو كان المعدود أجناساً وأقاليم .

ومن الحق علينا بعد هذا العرض أن نقرر أن هذا المذهب الأثرى مذهب فى عناصر أصوله كل الأسباب التى تنميه ، وقد وجد رجال علوا به وساروا به الى الطريق الأمثل فأوجدوا فيه حياة تتسع لاحكام الحوادث فى كل الأزمنة والأمكنة .. اهـ »

وبعد هذا اتضح أن هذا الفهم للحنبلية والحنابلة فهم خاطيء لم يبين على أسس سليمة ، وأن هذا المذهب مذهب استمد من كلام الله وكلام رسوله واثار السلف الصالح . وقد خدمه العلماء المحققون الذين وهبوا أنفسهم للعلم حتى حفظوه ثم نشروه ..

السعودية ومذهب أحمد :

المتتبع لتاريخ مذهب أحمد يدرك أن المتبعين لهذا المذهب هم العلماء والمحققون الذين درسوا كتاب الله وسنة رسوله وأقوال صحابته والتابعين لهم باحسان ، ثم اطلعوا على مذاهب الأئمة الأربعة ، واختاروا مذهب أحمد عن معرفة وقناعة . ولذلك

كان منهم الأئمة الجهابذة الذين ملئوا الدنيا علماً
وخرجوا تلاميذ مجتهدين .. ويكفى أن نثبت
الامامين المحققين الشهيرين : الامام أحمد بن تيمية ،
والامام أبو عبد الله محمد بن قسيم الجوزية ..
فانهما قد كانا تابعين لمذهب الامام أحمد بن حنبل ،
ولم يمنعهما ذلك من النظر فى كتاب الله وسنة
رسوله ، والاجتهاد فيما بدا لهما ، ولذلك أجمع
الناس على امامتهما وصدقهما فى اللهجة ،
واخلاصهما للعلم وكثرة الفائدة فى كتبهما ، ومع
ذلك فان أتباع مذهب أحمد من العامة انحصروا
فى العراق والشام ، ولعل سر ذلك أن المذهب الذى
ينتشر هو الذى تدعمه سلطة وتتخذة حكومة منتشرة
فى بلاد واسعة .. وظل مذهب أحمد يتوسع ويكثر
أتباعه ، لكنه لم يصل الى الكثرة الكاثرة الا حينما
هيا الله تعالى له علماء المملكة العربية السعودية ،
فخدموه ويسروه للناس وعلموه لهم ، ونصرهم فى
دعوتهم الحكام السعوديون فكثر طلاب العلم وازدهر
المذهب حتى علِمَه الجميع ، وانتشر فصار هو

المذهب المعتمد لكل المملكة العربية السعودية
الواسعة ، وهو المقرر على الدارسين فى كل المراحل ،
ومنذ ذلك الحين والمذهب الحنبلى يأخذ فى
الانتشار والتوسع بحكم قيمة المملكة العربية
السعودية وفضلها على ما سواها لوجود الحرمين
فيها ، ولقيمتها التاريخية ولخضوع حكامها لشرعية
الله وتحكيمهم لكتاب الله وسنة رسوله على أنفسهم
وأولادهم ورعييتهم .. وما زال المذهب الحنبلى هو
العمدة فى المحاكم الابتدائية والعليا . وهو الذى
يدرسه المعدون للقضاء .. ونستطيع أن نقول ان
المذهب قد احتل الصدارة فى الأمة الاسلامية ..
لأن المملكة العربية السعودية هى رائدة المسلمين
وقبلتهم وأملهم فى الاستمرار بتحكيم الشريعة
الاسلامية ، والبعد عن القانون الوضعى . فما دامت
انتهجت هذا المذهب فقد كتب له الثبوت والدوام ..
فكثُر علماءؤه وكثُرَت كتبه ، وطُبعت على كثرتها
ووضعت فى متناول كل المسلمين . ودرس المذهب
الحنبلى طلاب العلم من كل البلاد الاسلامية وأتقنوه

وذهبوا ينشرونه في بلدانهم . وذلك كاف لانتشاره
في العالم .. وهو جدير بذلك لكونه معتمداً على
الكتاب والسنة بدقة وتحري وثيق .. كما ذكرنا
في سيرة الامام أحمد بن حنبل رحمه الله . ■■■

مراجع البحث

- ١ - حلية الاولياء وطبقات الاصفياء : لأبى نعيم احمد بن عبد الله الاصبهاني .
- ٢ - مناقب احمد : لأبى الفرج ابن الجوزي .
- ٣ - طبقات الحنابلة : لمحمد بن أبى يعلى .
- ٤ - المدخل الى مذهب الامام احمد بن حنبل : لابن بدران .
- ٥ - لمعة الاعتقاد : للامام الموفق ابن قدامة المقدسى .
- ٦ - كتاب الحيدة : للامام عبد العزيز بن يحيى بن مسلم الكتانى المكي .
- ٧ - احمد بن حنبل - والمحنة - تاليف ولتر باتون - ترجمة عبد العزيز عبد الحق .
- ٨ - ابن حنبل - حياته وعصره وآراؤه الفقهية : محمد أبو زهرة .
- ٩ - الأئمة الأربعة : د. احمد الشرباصى .
- ١٠ - احمد بن حنبل امام اهل السنة : عبد الحليم الجندي .
- ١١ - الامام الممتحن - احمد بن حنبل : البهي الحولى .

الفهرس

صفحة

- كلمات عن الامام ٣
- مقدمة ٥
- شخصيته ومؤلفاته : ٩
 - معلومات شخصية عن الامام - صفاته الظاهرة -
 - سيرته - زهده - علمه بما علم - فضائل الاماء
 - ومناقبه - انتاج احمد
- المحنة العظمى : ٢٤
 - جلساء السوء والبطانة السيئة - المناقشة -
 - الرسائل - الرسالة الأولى - الرسالة الثانية -
 - الرسالة الثالثة - التسفير والسجن لأحمد -
 - المناظرات - لطيفة - بريق الأمل بنهاية المحنة -
 - مدة المحنة - فلسفة أحمد في تصلبه لرأيه - تنبيه
 - لا بد منه - حقيقة المشكلة - أحمد بن أبى دؤاد
 - الأيادي الجهمي - نهاية الظالم - آثار المحنة
 - وفوائدها

صفحة

- وفاته ومراثيه : ٩٧
- وفاة الامام - رثاء الامام - الأئمة الأربعة ومذاهبهم
- المذهب الحنبلي : ١٠٤
- مذهب أحمد - رأي الامام - هل يوجد الزمن بمثل
- الامام أحمد ؟ .. - حنبلي وحنابلة - السعدية
- ومذهب أحمد
- مراجع البحث ١٢٢



دار عالم الكتب للنشر والتوزيع - الرياض - ص.ب: ٦٤٦٠

هاتف: ٤١٢١٢٣٥ - ٤٦٥١٦٨٩ - تليكس: ١٤٧٧ SJ٢٠